منتخبات من الأدب العربي الحديث

دراســـــــة فنيـــــــه

تأليف

د. محروس منشاوى الجالى
أستاذ الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا — القاهرة
ت ٩٢٠٨٦٨ — ٣٩١٩٣٧٧

منتخبات من الأدب العربي الحديث

دراســـة فنيـــه

تأليف

زوسّ منشاوى الجمالى
أستاذ الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ـــ القاهرة
ت ٩٢٠٨٦٨ ـــ ٣٩١٩٣٧٧

محتويـــات الكتـــاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وبعـــــد .

فهذا كتابنا — منتخبات من الأدب العربى الحديث — وهو عبارة عن مجموعة من النصوص الأدبية — الشعرية والنثرية — التى تمثل اتجاهات الأدب الحديث وتكشف عن أصالته وخصائصه ، وتبين روافده وقيمته وحظ كل عنصر من عناصره ، ومزايا كل أديب وثقافته وطاقته من خلال استبطان هذه النصوص ودراستها والتعمق فيها لبيان ما تميز به كل نص من قيم فكرية وفنية وما اتسم به من سمات شعورية أو جمالية .

ومنهجي فى هذه الدراسة يقوم على سرد النص وشرح مفرداته اللغوية وايضاح معناه ، ثم اتبعه بدراسة تحليلية نقدية عنيت فيها بدراسة كل عنصر من عناصر النص فى حيدة وموضوعية ، مطبقا ، جهد طاقتى — مقاييس النقد الادبى الحديث على دراستى ، ثم أتبعت كل دراســــة نقدية بدراسة تاريخية موجزة عن صاحب النص وثقافته وروافد هــذه الثقافة وطبيعة المذهب الأدبى الذى ينتمى اليه صاحبه ، لأن النص قطعة من وجدان الأديب — كما يقولون — وقد تضمنت هذه الدراسة نصوصا لأعلام بارزين هم : البارودى ، حافظ ، شوقى ، مطران ، ناجى ، نعيمة ، حفنى ناصف ، والعقاد وطه حسين ، الزيات ، جبران . وبدهى فــان أدبنا العربى الحديث والمعاصر منوع الفنون متعدد الاتجاهات ، كثير الاعلام غزير الروافد ، ويصعب على الدارس أن ينتقى من نماذجه ما يمثل كل فرائده ، أو يزيح النقاب عن قلائده ، وحسبى هذه النماذج المنتخبــة والجواهر المنتقاة ، التى تدل على نفاسة هذا الأدب وأصالة معدنـــه

ونأمل أن نكون قد أصبنا فى الانتقاء وأجدنا الاختيار ودققنا فى الانتخاب ، ووفقنا فى الدراسة والتحليل والنقد ، والا فحسبنا اخلاص العمل ونبل الهـــدف ٠

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠ ٠

المؤلف

القاهرة فى ربيع الثانى ١٤٠٧هـ
نوفمبر ١٩٨٧م

منتخبـــات من الشـــعر

القصيـــــدة

* من شعر البارودي في الغزل :

قال البارودي :

١ ــ عرف الهوى في نظرتي فنهاني ... خل رعيت وداده فرعاني

٢ ــ أخفيت عنه سريرتي فوشى بي ... دمع أباح له حمى كتماني

---

١ ــ الهوى : الحب والغرام ، والخل : الصديق المختص ومثله الخليل ، والوداد المودة والمحبة ورعيت وداده : حفظته وأخلصته ، ورعاني : حفظني •

والمعنى : أن الغرام اشتد بالشاعر فظهر أثره في عينيه ونظراته ، فعرفه خليل من أخلائه انعقدت بينهما أواصر المحبة والصداقة فنهاه عن الهوى اشفاقا عليه •

٢ ــ السريرة : السر الذي يكتم ويراد بها هنا : ما حاول الشاعر اخفاءه وكتمانه من أمر حبه وغرامه ، ووشى بها : كشفها وأظهرها ، وأباح له : جعله مباحا ، والحمى : الشيء المحمي المصون الذي لا يقرب معتد •

والمراد بالشطر الثاني : أن دمعه كشف لخليله ما كان يحرص على كتمانه من أمر الهوى والغرام •

والمعنى : أنه كان شديد الكتمان لحبه وهواه حريصا على إخفائه عن خاصته وأخلائه ، ولما برح به الوجد غلبه البكاء ففاضت دموعه وانكشف ما كان يكتم من أمره •

٣ ــ فبأى معذرة أكذب لوعــة | شهدت بها العبرات من أجفانى
٤ ــ ياصاح لا أبصرت ما صنع الهوى | بأخيك يوم تفــرق الأظعان
٥ ــ يوم فقدت الحلم فيه وشــفنى | وله أصاب جوانحى فرمانــى

---

٣ ــ المعذرة : الحجة والعذر ، اللوعة : حرقة الحب وحــرارة الشوق : العبرات : الدموع والأجفان : جمع جفن : غطـــاء العــين من أعلاها ومن أسفلها وأراد بالأجفان عينيه •

والاستفهام فى قوله : فبأى معذرة ؟ قصد به النفى •

٤ ــ ياصاح : منادى مرخم أى : ياصاحبى ، « لا أبصرت » : جملة دعائية ، والأظعان : جمع ظعينة : المرأة فى الهودج وهو أداة ذات قبة توضع على ظهر الجمل لتركب فيها النساء والمعنى : يصور الشاعــر جزعه والتياعه يوم افتراق الشمل ورحيل الظعائن ويدعو لصاحبــه بألا يبصر ما كابده فى هذا اليوم من تبريح الوجد وحرقة الفؤاد بارتحال من أحبهن وتعلق بهن •

٥ ــ الحلم : الأناة والصبر ، وشفنى : هزلنى وأمضنى ، والوله : مصدر (وله) من باب تعب ، أى اشتد حزنه حتى ذهب عقله أو تحير من شدة الوجد ، والجوانح : الأضلاع القصيرة مما يلى الصدر الواحدة : جانحة ويراد بالجوانح : ما تحتويه وتنضم عليه وهو القلب : ورمى الشىء من يده ألقاه وقذفه والمراد أن الوله أصاب قلبه فسقط طريح الحب صريع الغرام ، وهذا البيت تفصيل لما أجمله فى البيت السابق ، فقد كان يوم الظعن مسيئا اليه عسيرا عليه ، اذ اشتد به الحزن وشفه الوله وأضناه الفراق حتى فقد حلمه ولم يجد صبرا •

٦ ـ فعليك من قلبي سلام فانه تبع الهوى فمضى بغير عنان

٧ ـ هيهات يرجع بعد ما علقت به لحظات ذاك الشادن الفتان

٨ ـ وعلى الرحائل نسوة عربية يخدعن لب الحازم اليقظان

---

٦ ـ العنان : سير اللجام الذي تمسك به الدابة ، ومضى بغير عنان : أي انطلق لا يتوقف ولا يتلبث ولا يصده شيء ومعنى البيت : حيا الشاعر محبوبته بعد ارتحالها تحية قلبية خالصة ، وقال : ان حبه لها سيطر على قلبه فانساق للهوى ومضى فيه .

٧ ـ هيهات : اسم فعل ماض ـ بمعنى بعد فهي كلمة تبعيد ، وفاعل « يرجع » ضمير « القلب » في البيت السابق ، وعلقت استمسكت به ، واللحظات : النظرات الساحرة الفاتنة ، والشادن : الظبي أي : الغزال اذا شدن أي : ترعرع وقوي واستغنى عن أمه وتشبه الحسان من النساء بالغزلان في الرشاقة وخفة الحركة وجمال الجيد والعينين ، والفتان : صيغة مبالغة من فتنت المرأة الرجل : أي : أعجبته واستهوته ودلهته وسلبت فؤاده بالعشق .

والبيت تشبيه لحبيبته بالشادن وتغزل بجمالها الفاتن واستبعاد رجوع قلبه اليه بعد ما صادته بنظراتها الساحرة .

٨ ـ الرحائل : جمع رحالة وهي السرج أو الرحل وكل ما يوضع على ظهر الدابة ليركب عليه راكبها ، ويخدعن لب الحازم : أي يستملن ويستهوين عقل أو قلب الذي يتقن رأيه ويضبط أمره .

وفي هذا البيت عاد الشاعر الى تصوير هؤلاء الحسان العربيات اللائي رآهن على الرحال أو في الهوادج مبينا كيف دلهنه وذهبن بفؤاده .

٩ — أغوينني فتبعت شيطان الهوى ان النساء حبائل الشـــيطان

١٠ ـــ ما كنت أعلم قبل بادرة النـــوى أن الأسود فرائس الغـــزلان

١١ ـــ رحلوا فاية عبرة مسفوحـــه ويد تضم حشا من الخفقـــان

---

٩ ـــ أغواه اغواء : أضله واغواه ، وتبعه اذا سار فى اثره ومشى خلفه ، والشيطان : روح شرير مغو مضل ، وكل عات متمرد مفســـد من الجن والانس ، وشيطان الهوى : قوته العاتية الغالبة ، أو الهـــوى الشبيه بالشيطان فى الاغراء والاغواء والاضلال ، وحبائل جمع حبالة : هى المصيدة ، والشطر الثانى : تذييل جار مجرى المثل مؤكد لمعنـــى الشطر الاول فالشيطان يفتن الرجال بالنساء ، وهن أشراكه وحبائله وهذا البيت تكرار لمعنى البيت السابق .

(١٠) البادرة : اسم فاعل من بدر الى الشىء أى : عجل اليـــه وسارع ، والنوى : البعد والافتراق ، وبادرة النوى : الفرقة العاجلة السريعة ، ويراد بالأسود هنا : شجعان الرجال وأقوياؤهم ، فرائس جمع فريسة ، الغزلان : الظباء ويراد بها هنا الحسان من النساء .

والمعنى : أن الحب قد أضناه وبرح به الوجد بعدرحيلهن فعرف أنه وقع أسير الحب صريع الغرام ، وفى البيت فخر ضمنى بشجاعته .

(١١) رحلوا : استخدم الشاعر ضمير جماعة الذكور العقلاء مع انه يتحدث عن النساء وتأويله أن الجمع هنا يشمل المرتحلين من الرجـــال والنساء أى : رحـل الراحلون ومعهـم الظعـائن . أية مؤنـــث اى ، وهى اسم اســــتفهام أريد به التعجب والمبـــالغة فى تصــــوير كثرة البكاء وغزارة الدموع المنسكبة ، والحشا : ما حواه الصدر ويراد به هنا القلب وخفقان القلب : اضطرابه وحركته مصدر (خفق) من بابـــى (نصر وضرب) .

١٢ ــ ولقد حننت لبارق شخصت له   منا العيون بأبرق الحنـــان

١٣ ــ يستن فى عرض الغمام كانه   لهب تردد فى سماء دخـــان

١٤ ــ فانظر لعلك تستبين ركابـــه   طوع الرياح يصيب اى مكانى ؟

والمعنى : اشتد وجد الشاعر فى اثر رحيلهن ، فغلبه البكاء وفاضت دموعه ، وخفق قلبه خفقانا شديدا فضم فوقه يديه كانه يخشى عليـــه ويحاول حمايته •

(١٢) حن اليه حنينا تاق ونزع واشتاق ، والبارق هنا : البرق وهو الضوء يلمع فى السماء على أثر انفجار كهربائى فى السحاب ، وشخصت العيون انفتحت فلم تطرف ، وابرق الحنان : موضع • والمعنى • يذكر حنينه وتوقان نفسه الى برق لمع فى أبرق الحنان فاسترعى انتباهه وأثار اهتمامه وشخص بصره اليه فى تأمل واشتياق ، ولعل صلة هذا البيـــت بما سبقه من ابيات الغزل ان حبيبته أو حبيباته رحلن الى أبرق الحنان •

(١٣) يستن : يضطرب ، عرض : وسط أو جانب أو ناحيه ، وعرض الشىء : معظمـــه ، والغمـــام ة السحاب واحدته غمامة ، والبيـــت وصف لاستنان البرق فى عرض السحاب وتشبيهه بلهب يتردد فى سمـــاء من الدخان فالغمام يشبه الدخان والبرق لهب متردد فيه •

(١٤) تستبين ركابه : تتبين وتعرف المطى أو الابل التى تركب أو التى يراد الحمل عليها ، والركاب جمع لا واحد له من لفظه وواحدته راحلة ، وهو طوع الرياح : أى منقاد منطاع لها • يقول : ان السحاب طـــوع الرياح تسوقه وترجيه فانظر اليه لعلك تعرف المكان الذى يقصده فيمطر فيـــه •

١٥ ــ فهناك تجتمع الشعوب وتلتقى هدب الخدور على غصون البان

١٦ ــ فاخلع عذارك واغتنم زمن الصبا قبل المشيب فكل شيء فانى

---

(١٥) هناك : اشارة الى المكان الذى يصيبه المطر ويحييه ، والشعوب : الجماعات والقبائل ، والخدور جمع خدر وهو كل ما واراك من بيت ونحوه وستر يمد للمرأة فى ناحية البيت ، والهدب واحدته هدبة ويجمع على أهداب وهو : طرف الثوب الذى لم ينسج ، والبان : ضرب من الشجر سبط القوام لين تشبه به قدود الحسان فى الطول واللين ، وغصون البان : كناية عن الحسان اللاتى يتميزن بجمال القدود والقامات وحسن الطول والتقطيع •

واستطرد الشاعر فى الأبيات الثلاثة السابقة الى وصف البرق والغمام والمطر ، ثم عاد فى هذا البيت الى الغزل والتحدث عن الحسان ولعل الجامع الشعورى بين الأبيات السابقه وما يليها ، ان المطر فى شبه الجزيرة العربية كان يصيب المكان فيسرع ويزدهر بالكلا والنبات فتهوى اليه الجماعات من الناس وقبائل العرب وتضرب الخدور والخيام على الحسان المخدرات •

(١٦) العذار : عذار الفرس ونحوه السير الذى يكون على خده من اللجام ، وخلع فلان عذاره : ظهر استهتاره وقل حياؤه واتباع هواه وانهمك فى الغى كالدابة تنطلق بلا رسن • واغتنم الشىء اغتناما : انتهز غنمه أو عده غنيمة وهى ما يفوز به المرء ، والصبا : الصغر والحداثة أو الفتوة والشباب ، والمشيب : الشيب أو سنه •

ومعنى البيت : يحض الشاعر على انتهاز زمن الصبا والشباب بالانهماك فى اللهو قبل فوات الفرصة باقبال المشيب وذهاب القوة ، والتذييل الذى فى نهاية البيت يضاعف الحض والترغيب •

أضـــواء على القصيدة

البارودى رائد الشـــعر الحـــديث

هذه قصيدة فى الغزل يمثل فيها البارودى الشعر القديم أدق تمثيل، فالاتجاه والتفكير والتعبير والخيال فى القصيدة وثيق الاتصال ببيئـة العربى وحياته وعواطفه وغزله ولهوه واقامته وارتحاله وأرضه وسمائه وعيشته فى باديته ، والشاعر ينتقل بقارئه الى البيئة العربية البحتـة ويعرضـها عليه مجلوة ويريه الكثير من ظواهرها وخفاياها •

ومما هو معروف أن البارودى تمكن من أن يبعث الشعر العربـى القديم من غفوته وأن يرد اليه حياته بعد ما ظل يرسف فى قيود الصنعة واغلال البديع قرونا متلاحقة فى عصور الضعف والركاكة والعجمة : وراح يعبر عن عواطفه وعواطف أمته ومجتمعه •

وقد كانت وسيلة البارودى فى ذلك عكوفه على دواوين القدامـى فقرأ شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والعباسيين واستقصى آثارهم واختار لأجودهم وقد بلغ فى ذلك حتى قال الاستاذ العقـاد عنـه : « ولا نعرف أحدا بين أبناء جيل البارودى أو أبناء الجيل الذى تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب واستفادت صياغته من هـذه القراءة أكثر مما استفاد » •

واذا كان البارودى قد أعاد الى الشعر العربى بهاءه ونضرته معتمدا على بعث القديم ومحاكاته وتمثله ومعارضته ، فان هذا العمل منه يعد تجديدا فى الشعر الحديث ، لأن الأذواق الأدبية آنذاك لم يكن لها الف بهذه النماذج الشعرية الرفيعة التى طلع بها البارودى على عشاق الشـعر

الذين سئموا النماذج الغثة الباردة التى كان ينشئها الشعراء فى القرن الماضى .

— كقول عبد الله فكرى المتوفى ١٨٨٩م — فى مليح رآه أول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفنه فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلة أبصرنا هلال جبينه علمنا يقينا أنها غرة الشهر

— وقوله فى مدح « اسكار » ملك السويد حين سافر اليها لحضور مؤتمر المستشرقين :

وتلا به اسكار رب سريره قولا به لذوى النهى اسكار

— وقوله مؤرخا زواج الأمير حسين كامل :

أرخ أنحو حسين ترفه عين الضياء

وعلى الرغم من أن عبد الله فكرى كان يمثل فى كثير من شعره تلك النماذج الهابطة المسفة لتى آلت الى شعراء القرن الماضى من عصور التخلف والتقليد والركاكة وضحالة المعنى ، فانه كان هناك من الشعراء من أوغل فى الضعف وتردى فى الخمول والكسل العقلى فى شعره السقيم الذى خلا من روح الشعر ولذة الفن وصدق الشعور .

وتوقفك الأبيات السابقة لعبد الله فكرى على ولعه بتصيد البديع الغث والاستعارة الفجة والجناس الردىء والمهارة فى حساب الجمل مع خلوه من المعنى الصادق والاحساس الجميل .

ومرد ذلك الضعف الذى هبط بالشعر الى هذا المستوى هو فتور الشعور القومى واختفاء بواعث الابداع ودواعى الابتكار عند الشعراء .

يقول الدكتور طه حسين . « وقد كان الشعراء والكتاب ـ أول القـــرن الماضى وأثناءه ـ يرون أنهم قد أدوا ماعليهم من حق البيان اذا اداروا هذه الجمل والألفاظ التى كانوا يديرونها على نحو من البديع مألوف ، فيه جناس وطباق وفيه استعارة ومجاز وفيه اشارة ورمز الى ابداء من المعنى تخطر لهم وقل أن تخطر لغيرهم من الناس » .

والبارودى رائد شعرنا الحديث بلا منازع وامام نهضته وباعثـه من سباته العميق الذى ظل يغط فيه قرونا عديدة ، وهو أستاذ مدرسـة شعرية لها خصائصها ومميزاتها بين مدارس الشعر العربى الحديث، وهى مدرسة : البعث والاحياء ، تلك التى أحيت نماذج الشعر القديم فى عصوره الزاهرة ، وراح شعراؤها ينسجون شعرهم متوخين هذه النماذج الرفيعة ويصبون فى قالبها أغراضهم الجديدة التى هى وليدة عصرهم .

وشعراء هذه المدرسة قد حافظوا على النمط المألوف للقصيدة القديمة من حيث : بناؤها الفنى وصورها الشعرية وموسيقاها الرتيبة وأسلوبهـا القوى الجزل وعباراتها الرصينة ومعانيها الواضحة المستقيمة ، ومن شعراء هذه المدرسة : البارودى وحافظ وشوقى والجارم ومطران والكاظمى والرصافى وغيرهم من شعراء العربية فى العصر الحديث .

حـــــول القصيـــــدة

هذه القصيدة عالجت موضوعا واحدا هو تغزل البارودى فى حبيبة لم يفصح عنها ، ولكنه اكتفى بتصويره أثر الهوى فى نفسه وكيف صنع به ما صنع ، والى أى مدى كان فراق حبيبته مؤثرا فيه .

وكيف كان مفتونا بجمال هؤلاء النسوة اللائى رحلن بعيدا عنــه وتركنه يعانى من لوعة الفراق ، بعد أن تعلق بهن تعلقا شديدا ملك لبــه وعقله ، فراح يسكب الدموع لوعة وشوقا لهن ، ثم استطرد الى وصف بارق شخصت له العيون ، وهو يضطرب فى عرض السماء ، ثم ختــم قصيدته بالدعوة الى اغتنام اللذائذ فى زمن الصبا قبل أن يأتى زمن المشيب .

هذه هى أفكار القصيدة فى ايجاز شديد ، وأكاد أجزم بــأن هذه القصيدة من الشعر الذى قاله البارودى فى مطلع حياته الشعرية لعدة أسباب منها :

ـ ان هذه القصيدة لا تنم عن تجربة شعورية ناضجة اختمرت فى أعماق الشاعر على أثر معايشته لها معايشة تنم عن حب حقيقى صادق أو انفعال وجدانى حقيقى ، بمعنى أنك اذا نقبت عن حبيبة حقيقية هام بها البارودى واهتزت لها أحاسيسه فى ثنايا هذه القصيدة لم تظفر بما يشفى غلتك من وراء بحثك وتنقيبك .

ـ ان عنصر التقليد والمحاكاة واضح فى القصيدة من أولهــــا الى نهايتها ، فلقد عاش الشاعر فيها حياة غير حياته وعصرا غير عصره ، ونقل الينا مشاهد بدوية بحتة ـ كالأظعان ـ والمنان ـ ولحظـــات

الشادن الفتان – وعلى الرحائل نسوة عربية – حبائل الشيطان – ان الأسود فرائس الغزلان – وأبرق الحنان – ولقد حننت لبارق .... الخ – وعرض الغمام – لهب تردد فى سماء دخان – هدب الخدور على غصون البان – فاخلع عذارك ... الخ .

ويدل هذا على مدى تعلق البارودى بمحاكاة ما قرأه من شعر القدامى وتمثله وهضمه الى حد ذابت معه فيه شخصيته الأدبية ، وقد كان هذا بالطبع فى صدر حياته الشعرية .

ومن نماذجه غير هذه القصيدة قوله :

آلا حى من أسماء رسم المنازل ۔۔۔ وان هى لم ترجع بيانا لسائل

خلاء تعفتها الروامس والتقت ۔۔۔ عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

فلأ ياعرفت الدار بعد ترسم ۔۔۔ أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى

غدت وهى مرعى للظباء وطالما ۔۔۔ غنت وهى مأوى للحسان العقائل

فللعين منها بعد تزيال أهلها ۔۔۔ معارف أطلال كوحى الرسائل

.. الخ

ولكن البارودى لم يقف فى شعره عند حد المحاكاة والمعارضة والتقليد ، ولكنه انطلق يعبر فيه عن ذاته بما انطوت عليه من مشاعر ، وعن عصره وما شابه من ظروف وأحداث .

– فمن قصيدة له يرثى فيها زوجته وقد ماتت فى مصر وهو لا يزال فى منفاه :

يادهر فيم فجعتنى بحليلة ۔۔۔ كانت خلاصة عدتى وعتادى

ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها ۔۔۔ أفلا رحمت من الاسى أولادى ؟

ومن البلية أن يسام اخـو الأسى رعى التجلد وهو غير جمـاد
هيهات بعدك أن تقر جوانحـى أسفا لبعـدك أو يلين مهـادى
ولهى عليك مصاحب لسيرتـى والدمع فيك ملازم اوسـادى
فاذا انتبهت فأنت اول ذكرتـى واذا أويت فانت آخـر زادى

— ومن شعره فى اشعال الثورة العرابية قوله :

فياقوم هبوا انما العمر فرصـة وفى الدهر طرق جمة ومدافـع
اصبرا على مس الهوان وأنتـم عديد الحصى؟انى الى الله راجع .
وكيف ترون الذل دار اقامـة وذاك فضل الله فى الارض واسع
أرى أرؤسا قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطـع
فكونوا حصيدا خامدين أو افزعوا الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

— ومن مظاهر التقليد فى القصيدة كذلك صورها الشعرية وطريقة الشاعر فى التعبير عن معانيه كقوله فى البيت الثانى :

أخفيت عنه سريرتى فوشى بهـا دمع أباح له حمى كتمانـى

فهذا ماخوذ من قول الشاعر قبل البارودى :

لا جزى الله دمع عينى خـيرا وجزى الله كل خير لسانـى
نم دمعى فليس يكتم شـيئا ورأيت اللسان ذا كتمانـى

فالمعنى الذى تناوله البارودى وطريقة تصويره والتعبير عنـه مأخوذ من هذين البيتين اللذين فصلا ما أجمله البارودى •

وفى القصيدة كثير من الصور البدوية التى تلحظ مثلها فى قولـــه فى البيت السابع :

هيهات يرجع بعدما علقت بـــه لحظـات ذاك الشادن الفتـان

حيث استعار الشادن (الظبى) للمرأة الحسناء التى تيمته بنظراتها الفاتنة الساحرة .

ــ ولمـا كانت القصيدة القديمة لا تنتظم موضوعا واحدا فى الأعم الأغلب ، وانما كان يزف فيها الشاعر ما اختلج فى أعماقه وما وقـــع عليه حسه ، فان البارودى قد سمح لنفسه أن ينتقل من الغزل الـذى عالجه فى احد عشر بيتا الى وصف بارق اضطرب فى عرض الغمـام وسخصت له العيون ، ثم أنهى قصيدته ببيت أغرى فيه باغتنام زمن الصبا قبل المشيب . ومعنى هـذا أن الوحدة فى القصيدة ــ وحــدة مشاعر وأحاسيس ــ ويصح أن نطلق عليها هنا : وحدة موضوعية ، لأن الشاعر تناول فيها موضوعا واحدا هو : الغزل اذا استثنينا الأبيات المنوه بهـا آنفا .

ــ أما أسلوب القصيدة فيتسم بجزالة الألفاظ مع رقتها مواءمـة لعاطفة الغزل وما تقتضيه من صياغة ، كما يتسم بدقة التراكيب وسماحتها وخلوها من الغريب والمهجور من الألفاظ ، والقصيدة تمثل تلك الوثبة الرائعة التى وثبها البارودى بالعبارة الشعرية حيث انتقل بها من الركاكة والضعف الى المتانة والصحة ، وأنقذ بها الشعر من الأساليب الغثـة السمجة الى أسلوب عربى أصيل سمح .



قصيدة البارودى فى حرب البلقان(*)

قالها فى حرب البلقان بين الروس والدولة العثمانية :

١ ــ هو البين حتى لا سلام ولا رد	ولا نظرة يقضى بها حقه الوجد
٢ ــ لقد نعب (الوابور) بالبين بينهم	فساروا،ولا زموا جمالا ولا شدوا
٣ ــ سرى بهم سير الغمام كأنما	له فى تنائى كل ذى خلة قصد
٤ ــ فلا عين الا وهى عين من البكا	ولا خد الا للدموع به خـــد

(*) وقعت هذه الحرب ــ ١٨٧٨ م ــ حينما أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وقد أرسل الخديوى اسماعيل جيشا يعاون متبوعه ، وسافـر البارودى مع هذا الجيش ، واشترك فى الحرب ، وكوفىء لمواقفه فيهـا بانعام الخلافة عليه برتبة ــ أمير اللواء ــ وبنيشان الشرف (الميداليـا وبالوسام المجيدى من الدرجة الثالثة .

وفيها قال هذه القصيدة التى بثها خواطره وذكرياته ، وبعث بهـا الى الأستاذ الشيخ ــ حسين المرصفى ــ الذى يعد البارودى واحدا من تلاميذه ، والمتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ــ ١٨٨٩ م .

والقصيدة فى الديوان ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

(١) البين ــ الفراق ، والوجد : الحب .

(٢) نعب صفر وصوت ، زم البعير : شد عليه الزمام وهو الحبـل الذى يقاد به وشد الرحل ونحوه اذا وضعه على ظهر البعير وربطه وأوثقه .

(٤) عين الأولى ــ حاسة الرؤية ، وعين الثانية : ينبوع المـاء ، وللدموع به خد ، طريق أو تأثير .

(٥) فياســـعد حدثنــى بأخبـــــار من مضــى
فأنت حبـير بالاحــــاديث يا ســــــعد

(٦) لعل حديـــث الشـــوق يطفىء لوعــــة
من الوجـــد أو يقضى بصاحبـــه الفقـــد

(٧) هو النـــار فى الأحشـــاء لكن لوقعهـــا
على كبـــدى مما ألـــذ بـــه بـــرد

(٨) لعمر المغـــانى ، وهـــى عنـــدى عزيـــزة
بســـاكنها ما شاقنـــى بعدهـــا عهـــد

(٩) اكانت، وفيهــــا ما تـــرى عين ناظـــر
وأمســـت وما فيهـــا لغير الأســـى وفـــد

(١٠) خـــلاء من الآلاف الا عصـــــابة
حداهم الى عرفانهـــا أمل فـــــرد

---

(٥) يستخبر شخصا حقيقيا أو خياليا يعرف أخبار من فارقهم من أهله وأحبائه .

(٦) اللوعة : حرقة فى القلب ــ وألم من حب أو غيره ، والوجــد : المحبـــة .

(٧) هو : أى حديث الشوق ، والأحشاء : جمع حشا وهو ما اشتملت عليه الضلوع أى هو : ما حواه جوف الانسان ، وقعها : وقوعها ، ومـــا ألذ به : بسبب لذتى به .

(٨) العمر : الحياة والمغانى : جمع مغنى وهو المنزل الذى أقـــام به أهله ثم غادروه ورحلوا عنه .

شاقنى : هيج شوقى ، العهد المنزل المعهود به شىء .

(١٠) مكان خلاء : خال ليس فيه أحـــد ، والآلاف : جمع آلف . العصابة : العصبة وهى الجماعة من الرجال ، ويريد بالعصابة نفســـه ومن كان معه من رفقائه .

(١١) دعتهم اليهــــــا نفحــــة عنبريــــة
وبالنفحـــة الحســـناء قـد يعـرف الورد

(١٢) وقفنا فسلمنا ، فردت بألسن صوامت الا أنها السـن لد

(١٣) فمن مقلة عبرى ، ومن لفـح زفـرة
لهـا شرر بـين الحشـا ما له زنـد

(١٤) فيا قلب صـبرا ان ألـم بك النـوى
فـكل فـراق أو تلاق له حـد

(١٥) فقـد يشـعب الألفـان أدناهمـا
الهـوى ويلتئم الضدان أقصاهما الحقـد

(١٦) على هـذه تجـرى الليـالى بحكمهـا
فآونـة قـرب وآونـة بعـد

(١٧) وما كنت لولا الحب أخضـع للفتى
تسيء ولكـن الفتى للهـوى عبـد

---

(١٢) لد : جمع الد صفة من اللدد وهو شدة الخصومة . والمراد أن رسومها كانت واضحة الدلالة ، كأنها تنطق بما مضى من أحوال أهلها بفصاحة ولسن .

(١٣) المقلة شحمة العين التى تجمع سوادها وبياضها ، وعبرى : يجرى دمعها حزنا ، واللفح : مصدر لفحته النار والسموم بحرها أى : أحرقته ، والزفرة : اسم الزفير وهو اخراج النفس طويلا ممدودا ، والشرر : ما يتطاير من النار واحدته شررة والحشا : ما اشتملت عليه الضلوع أو ما حواه البطن ، والزند : العود الذى تقدح به النار .

(١٨) نعـــودى صـــلب لا يلين لغــــامز
وقلبى ســـيف لا يفـــل له حـــــد

(١٩) اباء كمـا شـــاء الفخـــار وحبـــوة
يذل لهـــا فى خيســـه الأســـد الورد

(٢٠) وانـــا أســاس ليس فينـــا معـــابة
ســوى أن وادينا بحـــكم الهـــوى نجـــد

(٢١) نلين — وان كنا أشـــداء — للهوى
ونغضب فى شروى نقـــير فنشـــتد

(٢٢) وحســـبك منـــا تـــيمة عربيـــة
هى الخمـــر ما لم يأت من دونهـــا حـــرد

(١٨) هو صلب العود : أى قوى الشكيمة ماضى العزم ، وغامز : من غمز الرجل العود ونحوه اذا جسه ليعرف لينه من صلابته ، ومعنى لا يلين لغامز أنه ليس فيه ضعف ولا عيب ويفل : يثلم ، وحد السيف : شفيره ، وطرفه وحرفه القاطع . والبيت كناية عن قوته وشجاعته .

(١٩) خيس الأسد : موضعه وأصله الشجر الملتف ، الأسد الورد : ما كان وردى اللون بين الكميت والأشقر ، أو هو الجرىء .

(٢٠) نجد فى وسط جزيرة العرب تقريبا ، وهو الجزء المحدود بين اليمن وتهامة والحجاز والشام والعراق ، وهو يشير بالشطر الثانى من هـذا البيت الى أن حبه عفيف ، فقد اشـتهر أهل نجد بالحب العذرى العفيف ، وفى البيت تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(٢١) أشداء : جمع شديد وهو الشـجاع الصلب والشروى : المثل والنقير : النكتة فى ظهر النواة ، وشروى نقير ة مثل يضرب للقلة .

(٢٢) الحرد : الغضب مصدر حرد ، يشبه طبائع قومه بالخمر فى السلاسة والسهولة والرقة والصفاء ، ويقول : أنها طبائع عربية كريمة تلين اذا رضيت وتشتد اذا غضبت .

(٢٣) وبى ظمـــــأ لم يبلغ المـــاء ريــه
وفى النفس أمر ليس يدركه الجهـــــــد

(٢٤) أود وما ود أمـــرىء نافعــــا له
وان كـــان ذا عقـــل اذا لم يكن جـــد

(٢٥) وما بى من فقـــر لدنيـــا وانمـــا
طلاب العـــلا مجـد ، وان كان لى مجـــد

(٢٦) وكم من يـــد للـــه عنـــدى ونعمـــة
يعض عليهـــا كفـــه الحاســـد الوغـــد

(٢٧) أنا المـــــرء لا يطغيـــه عـــز لثروة
أصـــاب ا ولا يلوى بأخـــلاقه الكـــد

(٢٨) أصـــد عن المـوفور يدركه الخنـــا
وأقنـــع بالميســـور يعقبـــه الحمـــد

(٢٩) ومن كـــان ذا نفس كنفسى تصـــدعت
لعـــزته الدنيـــا ، وذلت له الأســـــد

(٣٠) ومن شيمى حب الوفــــــاء ســـجية
وما خــــير قلـــب لا يـــــدوم لـه عهـد

(٣١) ولـــكن اخوانـــا بمصر ورفقــــة
نســـونا فـــلا عهـــد لديـــهم ولا وعـــد

---

(٢٣) ريه : مصدر روى من المـاء (من باب رضى) (بكسر الراء وفتحها) . ومعنى البيت أن همته فى الحياة أبعد من سعيه ، وأن أمله أرفع من عمله .

(٢٤) ود : مصـــدر وهو مثلث الواو ، والجـد بالفتح : الحظ والحظوة والرزق .

(٢٦) الوغد : الدنىء .

(٣٢) أحن لهم شــوقا على أن دوننـــا
مهامــه تعيــا دون أقربهــا الربــد

(٣٣) فياساكنى الفســطاط ! ما بال كتبنا
ثوت عنــدكم شــهرا وليس لهــا رد !

(٣٤) أفى الحــق أنا ذاكرون لعهــدكم
وأنتــم علينــا ليس يعصفــكم ود ؟

(٣٥) فلا ضــير ان الله يعقب عــودة
يهــون لهــا بعــد المواصــلة الصــد

(٣٦) جــزى اللــه خــيرا من جزانى بمثله
على شــقة غــزر الحيــاة بهــا ثمــد

(٣٧) أبيت لذكــراكم بهــا متململا
كأنى ســليم أو مشت نحــوه الورد

(٣٨) فلا تحســبونى غافــلا عن ودادكم
رويدا ، فما فى مهجتى حجــر صــلد

---

(٣٢) الربد : النعام يقال ظليم أربد ، ونعامة ربداء اذا كان لونها كلون الرماد .

(٣٦) الشقة : البعد والسفر البعيد والمشقة ، والثمد : المــاء القليل أو ما يذهب فى الصيف ويظهر فى الشتاء ، والغزر : مصدر غزر المــاء ونحوه أى كثر فهو غزير .

(٣٧) بها أى بالشقة المذكورة فى البيت السابق ، متململا : اى متقلبا ضجرا بسبب الوجد والغم ، والسليم : من لدغته الحية ، والورد : من أسماء الحمى .

(٣٩) هــو الحب لا يثنيـــه نأى وربمـا
تأرج مـن مس الضرام له النـــــــد

(٤٠) نأت بى عنـــكم غـــربة وتجهمت
بوجهى أيــــام خـــلائقهــــا نكـــــد

(٤١) أدور بعينـــى لا أرى غــير أمـة
من الروس بالبلقـــان يخطئهـا العـــد

(٤٢) جواث على هــام الجبــال لغـارة
يطــير بهــا ضــوء الصباح اذا يبـــدو

(٤٣) اذا نحـن سرنا صرح الشمر باسـمه
وصـــاح القنـــا بالمـــوت واستقتل الجند

---

(٣٩) الند : عود طيب الرائحة يتبخر به ، أو هو نوع من الطيب أو العنبر ، والمعنى : ان الحب لا يضعفه البعد المؤلم المحرق . بل يزيده ويهيجه ، كالند تتوهج ريحه اذا مسته النار • وفى البيت تشـبيه ضمنى لا يخفى •

(٤٠) خلائقها : المراد طبائعها وهو استعمال مجازى . ونكد : جمع نكداء صفة من النكد ومعناها : مشئومة عسرة •

(٤٢) جواث : صفة لأمة فى البيت السـابق وجمع التصحيح جاثيات ومفرده : جاثيه اسم فاعل من (جثا) اذا جلس على ركبتيه وهام الجبال : رؤوسها •

ومعنى الشطر الثانى من البيت : أنه اذا بدا الصـبح انتشرت الغارة ، حتى كأن ضوء الصباح هو الذى يدفعها الى سرعة الانتشار •

(٤٤) فأنت تـــرى بـــين الفريقـــين كبـــة
يحــدث فيهــا نفســه البطــل الجعــد

(٤٥) على الأرض منهــا بالدماء جــداول
وفــوق سراة النجــم من نقعهــا لبــد

(٤٦) اذا اشتبكوا أو راجعــوا الزحف خــلتهم
بحــــورا توالى بينهــا الجــزر والمــد

(٤٧) نشــلهم شــل العطــاش ونت بهــا
مراغمـــــة الســـقيا ، وما طلهـــا الورد

(٤٨) فهــم بـــين مقتــول طريح وهارب
طليح ، ومأســــور يجاذبه القــــد

---

(٤٤) الكبة : الدفة فى القتال والحملة فى الحرب ، والجعـد : الكريم الجواد ، والمعنى : فأنت ترى بين الفريقين المتحاربين حملة شديدة يحدث فيها الشجاع نفسه بالفرار •

(٤٥) جداول جمع جدول : النهر الصغير ، وسراة النجم أعلاه ، والنقع : الغبار •

(٤٦) الجزر : انخفاض المـاء ورجوعه الى خلف ، والمد :ضد الجزر وهو ارتفاع المـاء وكثرته واقباله نحو الشاطىء •

(٤٧) شــل : نطرد ونسوق ، ونت : ضعفت وفترت ، المراغمة : الهجران والتباعد والسقيا : السقى ، الورد : النصيب من المـاء أو الاشراف عليه ، والمعنى : أن أعداءنا يهجمون علينا بعنف وشدة ، كما تهجم العطاش على المـاء بعد دلول الظمأ ، فنرد هجمتهم وندفع دسولتهم •

(٤٨) طليح : متعب ، القد : سيريقد أى يقطع ويشق من جلد غير مدبوغ ويقيد به الأسير ونحوه •

(٤٩) نروح الى الشــورى اذا أقبل الدجى
ونغـــــدو عليهم بالمنـــايا اذا نغـــــدو

(٥٠) ونقتـحم لج البحـــر خضت غمـاره
ولا معقـل الا المناصـــــل والجـــــرد

(٥١) صـبرت له والمــوت يحمـــر تارة
وينغل طـــورا فى العجـــاج فيســود

(٥٢) فما كنت الا الليث أنهضـــه الطوى
وما كنت الا الســـيف فارقه الغمــــد

(٥٣) صؤول وللأبطـــــال همس من الونى
ضروب وقلب القــرن فى صــدره يعــدو

(٥٤) فما مهجـة الا ورمحى ضمــــيرها
ولا لبـــة الا وســـيفى لهـــا عقـــــد

(٥٥) وما كل ســاع بالغ سـؤل نفســه
ولا كل طـــلاب يصاحبــــه الرشـــد

---

(٥١) ينغل : يدخل ، والعجاج : الغبار والدخان .

(٥٣) صؤول : صفة مبالغة من (صؤل) صآلة أى : وثب مقاتلا .
والقرن : كفؤك فى الشجاعة ؛ ويعدو : يجرى ، وعدو القلب فى الصدر كناية عن شدة الاضطراب والخوف .

(٥٤) البيت كناية عن كثرة تقتيله لأعدائه فى هــذه الحرب .
وفيه تشبيهان بليغان كما لا يخفى .

(٥٦) اذا القلب لم ينصرك فى كل موطن
فما السـيف الا آلة حملها اد

(٥٧) اذا كان عقبى كل شىء وان زكا
فناء ، فمكروه الفناء هو الخلد

(٥٨) وتخليد ذكر المرء بعد وفاته
حياة له ، لا موت يلحقها بعد

(٥٩) ففيم يخاف المرء سورة يومه
وفى غده ما ليس من وقعه بد

(٦٠) ليضن بى الحساد غيظا ، فاننى
لآنافهم رغم وأكبادهم وقد

(٦١) أنا النائل المحمود من غير سببة
ومن شيمة الفضل العداوة والضد

---

(٥٦) الأد : الأمر الفظيع والداهية والمنكر .

(٥٧) يقول : اذا كان الفناء نهاية كل شىء وان زاد ونما فان هذا الفناء المكروه هو الدوام والبقاء .

(٦٠) ضنى (كرضى) ضنى : مرض مرضا مخاطرا كلما ظن برؤه نكس ، وآناف جمع أنف ورغم : قسر وذل وقهر وأصله من أرغم الله تعالى انفه اى : ألصقة بالرغام وهو التراب ، والوقد : النار أو اتقادها .

(٦١) الند : مصدر ضده فى الخصومة بمعنى غلبه ، ومعنى البيت : أن الأفاضل معرضون دائما للحسد والخصومة والعداوة ممن حولهم .

(٦٢) فقد يحسـد المرء ابنـه وهو نفسـه
وربّ سـوار ضاق عن دمـله العضـد

(٦٣) فلا زلت محسـودا على المجـد والعلا
فليس بمحسـود فتـى ولـه نـد

* * *

---

(٦٢) السوار من الحلى : ما تزين به المرأة معصمها ، والعضد ما بين المرفق الى الكتف ، وفى البيت تشبيه ضمنى • وموضع السوار فى العضد معروف •

حـول القصـيدة

تحليل ونقـد :

١ ــ الأفكار : هذه القصيدة من شعر الوطنية عند البارودى ، وهو أحد الأغراض الجديده التى أكثر من النظم فيها والترجمة عنها ، والتى تعد وليدة العصر وصدى البيئة وانعكاسا للشعور الوطنى الذى دب فى نفوس المصريين ، منذ أن فجرته عوامل اليقظة وأسباب الوعى ، ومنهم أو قل : على رأسهم شاعرنا هـذا •

والقصيدة تجربة صـادقة عاشت فى وجدان الشـاعر وانفعلت بمعانيها أحاسيسه ، فترجمها فى بيان مؤثر ، وتصوير معبر عن صدى الوجدان وكامن الشعور •

وهى وان كانت جـديدة فى موضـوعها أو فى بعض أغراضه ، بيد أن شاعرنا قد سار فيها على منهج القدامى فى البناء الفنى المألوف ، الذى غالبا ما يقوم على تعدد الاغراض وتناثر الأفكار فى القصيـدة الواحدة ــ ضمن ما يقوم عليه من أصول ــ وضمنها هذه الأفكار :

(أ) تصوير المعاناة النفسية التى عاناها الشاعر وهو فى غربته بعيدا عن وطنه وأحبابه بعد أن عاودته ذكرى الفراق الكئيب ، الذى تم فى سرعة خاطفة ، وانتزع الأحبة من ذويهم دون تمهيد يهيىء النفس لتقبل الرحيل ، أو يعينها على التجلد والتصبر اثر الوداع الخاطف الذى أسلم الشـاعر الى فراق ثقيل ، فلا سـلام من المرتحلين ولا رد من المودعين ، وانما نظرة عابرة لا تطفىء لهيب النوى ، ولا تبل حرقة الشوق ، وما هو الا أن صوت الوابور معلنا الفراق بل ومشجعا عليه دون مهلة تمين على حزم المتاع وشد حقائب المسافرين ، وكأنه هو الآخر صاحب عرض ملحاح لا يعنيه سوى بلوغ أربه وادراك حاجته ، التى لا تتم الا بالوصـول الى أرض نائية اعتصرت فيهـا الأفئدة ، وسالت فيها العيون •

ثم أعقب ذلك بالتسرية عن نفسه والترويح عنها وذلك بسماع ذكرى الأحبة الذين تركهم فى وطنه ، لعله يجد فيها بعض السلوى والعوض ، اذ كان الحديث عن موطن الذكريات يروى لظى البعاد ويطفىء نار الشوق التى تزيد من اشتعالها الام النوى والفراق ، حتى اذا حدثه المتحدث عن أخبار رفاقه وخلانه ، خمدت هـذه النيران فى جوانحه وانطفأ لهيب جذوتها ، وشعر بشيء من لذة الوصل ونشوة التلاقى .

ولم يكن للبارودى وهو المفتون بطريقة القدامى والذى تتلمذ على شعرهم أن يمر فى قصيدته دون الوقوف على ديار الأحبة ومناجاتها والبكاء والاستبكاء عليها — كما كان يفعل كبار الفحول منهم ، وهو الذى عارضهم وحاكاهم ، وتمثل طرائقهم فى النظم ومذهبهم فى البناء ، وكذلك قد نحل فذكر المغانى التى خلت من أهلها برحيلهم عنها مصورا فى هـذا المقطع من القصيدة ، كيف دفعه وفاؤه وشوقه — مع رفاق له — الى الوقوف بها والتسليم عليهـا ، لعل فى ذلك ما يبل لهيب شـوقه ويطفىء ضرام ظمئه .

ولقد ترجم البارودى فى ذلك عن عاطفة مشتاقة حارة صورتها الأبيات — من الأول حتى الثالث عشر — وذلك فى عبارات موحية بآثار النوى وآلام الفراق ، وشدة اللوعة وفرط البكاء ، والأنين ، ولهفة الغريب وحنينه الى وطنه وساكنيه ، وتحسره على آثار الراحلين ، وذكرى المقيمين ، وما الى ذلك ممـا ينبىء عن عاطفة قومية صـادقة وشـعور وطنى نبيل .

وبعد أن أفاض فى ذلك نراه قد هدأ فى أفكاره ، وتريث فى تصوير عاطفته التى هدأت حدتها ، وانصرف الى قلبه مخاطبا اياه ، بالتصبر على آثار النوى ، والتجلد على مقاومة الخطوب ، فقد يلتئم الصدع ويجمع الشمل بعد يأس طويل مصداقا لقول الآخر :

وقد يجمع الله الشـتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيـا

وتلك حكمة الليـــالى وسنة الحياة التى تقرب تارة وتبعد أخرى وقد تقرب ولا تبعد أو تبعد ولا تقرب ، وعلى المرء أن يقنع بقسمته ، وأن يذعن لقضائه ، اذ ليس له من سبيل فى رده ، صور البارودى هذه الفكرة فى قوله :

فيا قلب صبرا ان ألم بك النوى ... فكل فراق أو تــلاق لــه حــد

فقد يشعب الألفان أدناهما الهوى ... ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد

على هذه تجرى الليالى بحكمها ... فآونة قرب وآونــة بعـــــد

ولمــا كان البارودى نزاعا بطبعه الى الفروسية وتعشق البطولة ، التى ترفع صاحبها على مستوى الخطوب والأحداث ، طموحا الى المجد ، نزاعا الى تحقيقه ، مهما كان البذل والعطاء ، وهو القائل :

ومن تكن العلياء همة نفســـه ... فكل الذى يلقاه فيهـــا محبب

والقائل كذلك يصور ايمانه بالقدر ورضاه بشيم الدهر :

لا يرى عانبا على شيم الدهـ ... ـر ولا عابثا ولا مزاحـــا

لمــا كان هذا كذلك ، فلقد جنح الى تبرير عاطفته الحارة المتشوقة التى صورتها أبياته فى الحنين الى الوطن والتشوق الى الرفاق .

ولعله قد رأى أن الافاضة فى مثل هذا التصوير العاطفى يعد ضعفا أمام مجريات الأحداث التى تسمو همته عليها ، وذلك عيب لا يليق بخلق من كان على شاكلته ، ولكن ما حيلته ، وقد أفعم قلبه بالحب وفاضت به جوانحه ، ولا سبيل له فى التغلب على سلطانه يقول :

وماكنت لولا الحب أخضع للتى ... تسىء ولكن الفتى للهوى عبد

اذن فعاطفة حب الوطن وآله هى التى جعلته يغلو فى تصوير

الشوق ويعجز عن مقاومة الصراع النفسى الداخلى ، الذى سيطر على وجدانه كما ينطق بها بيته السابق .

(ب) ترفق البارودى فى الانتقال من هـذا الغرض وما يحيط به فيه من جو نفسى كئيب ، الى الفخر بصفاته التى ميزته والتى يعجز أمامها الشجعان مهما كانت قوتهم — وان كانت هـذه الصفات ضعيفة خائره أمام الحب العميق ، الذى شده شدا الى وطنه وخلانه . وجعله يحيد عن فلسفته فى حياته — وهـذه المعانى والقيم التى فاخر بهـا نمتاح معينها من صفات القدامى وتجرى على سننهم ، فهو شجاع فاتك ، رابط الجأش ، قوى العزيمة ، نافذ الضربة ، قلبه الشجاع لا يعرف خورا ولا يدنو منه ضعف ، تخشاه الاساد فى آجامها والوحوش فى آجامها ، وهو صاحب حب طاهر عفيف ، وفى لأصـدقائه وصحبه ، يلين فى موضع اللين ، ويقوى فى موقف الشدة . عاقل رزين متزن ، طموح الى المجـد ، مجد فى طلب العـلا ، حباه الله بنعم لا تعد ، كانت مثار حسد حساده وضيق منافسيه ، وهو قنوع زاهد فى حطام الدنيا ، لا يفتنه المـال الوفير ولا يطغيه شأن الأدنياء من طلاب الشهرة وعبيد المـال .

فاذا أصابه المـال فليس بطاغ ، واذا أخطـأه فليس بنادم ، يعف عن المـال الوفير اذا كانت سبيله رخيصه ويقنع بالقليل الذى تقسم له متى كانت سبيله مشروعة ، كما أنه أبى النفس ، عزيز الجانب ، تذل الدنيا لعزة نفسه ، شيمته الوفاء والبقاء على العهد .

وقد تناول هـذه الصفات فى أبياته من : الثامن عشر الى الثلاثين .

(جـ) عاود البارودى حديثه عن عاطفة الشوق وتصويرها مرة ثانية ، بعد أن أفاض فى الفخر بشمائله على الطراز السابق .

وقد كان فطنا فى الانتقال من غرض الى غرض ، رفيقا فى هذا الانتقال من جو الفخر والحماسة وما يتبعه من قوة العاطفة ، التى يلزمها قوة اللفظ وفخامة العبارة — الى جو العتاب الرقيق والشوق اللهيف ، والحنين الدافىء ، وما يتطلبه ذلك من عذوبة اللفظ ورقته ، وجمال الصورة وحسنها ، وهـذا ما يطلق عليه النقاد — حسن التخلص والخروج — وعلى قدر حذق الشاعر له وبراعته فيه — بحيث يخفى دبيبه ويستر نقلته — تكون درجة اجادته ، لأن ذلك يعمل على ترابط الأفكار وانسجامها ، بين أبيات القصيدة الواحدة •

وفى الأبيات من الحادى والثلاثين الى الأربعين ، يصور الشاعر نفسه التواقة الى الوطن ومن فيه ، ويبدو أن هـذه النفس لم تطب لهذا المقام البعيد ، لا لضعف منها أو جبن فيها ، وانما كان حب الوطن أقوى من مقاومة البعاد ، ومن ثم نرى عاطفة الشوق — وهى عاطفة وطنية قوية — تلفه لفا كثيفا ، وهى فى هذه المرة ، ابقاء على العهد ووفاء بالود ، وعلى الرغم من بعد الشقة وطول المسافة بينه وبين رفاقه فى مصر ، فهو مبق على العهد ، محافظ على أواصر الود ، لا يفتأ يفكر فيهم ويراسلهم ويحن اليهم حنين الصب المستهام ، يتشوق الى كتبهم ورسائلهم علها تقلل من لظى الوجد وحرقة النوى وآلام الفراق •

فهـو يعيش بينهم وان بعـد عنهم ، يشـاركهم عواطفهـم ويبادلهم مآسيهم وان فصلت بينه وبينهم مسافة شاسعة وحل عنهم فى مكان سحيق •

وهو فى عتابه لهم رفيق رقيق يسائلهم فى تلطف وتحنان : هل لا يزالون على العهد مبقين ؟ وللذكرى حافظين ؟ أو أن طول البعاد انساهم وبعد الديار شغلهم فضربوا عنه صفحا ، ونسخوه من قائمة الصداقة وسجل الأصدقاء فى عصر انعدم فيه الوفاء أو كاد ؟ ! •

وقد ألح البارودى على توكيد هذا المعنى ، مما يدل على معاناته النفسية من تلك الخلة الذميمة التى تفشت فى عهده ، تلك التى تنبذ الوفاء ، وتطرح العهد وتفرط فى الميثاق الذى ينبغى أن يكون قائما بين الصديقين أو الأصدقاء •

وللبارودى شعر كثير كان أكثر صراحة فى الترجمة عن هذه النزعة من نزعات النفس الوفية ، التى تمقت النفاق وتتأفف من المنافقين غير الأوفياء ، منه قوله من قصيدة طويلة :

لأى خليل فى الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خب منافق

بلوت بنى الدنيا ، فلم أر صادقا
فأين لعمرى الأكرمون الأصادق ؟ !

ثم يمضى الشاعر فى الحديث عن ذكرى رفاقه وأيامه بينهم ، مؤكدا على أن ذلك يلازمه ليله ، فتزرق جفونه وتسلب من مقلتيه اغفاءة الراحة ، التى هو فى مسيس الحاجة اليها ، بعد نهار ثقيل متعب ، مصورا الباعث على ذلك كله ، وهو الحب الدافق الفياض ، الذى ملأ قلبه الحنون ، الممتلىء بمعانى الوفاء ، الفياض بمشاعر الولاء وعواطف الانسانية •

(د) — انتقل البارودى بعد الترجمة عن معاناته النفسية — التى ضاعف منها ذكرى وطنه وحنينه الى أقرانه ولداته — الى وصف حياته العنيفة ، التى يحياها فى ظل معترك صاخب وحرب ضروس بين جيش العثمانيين الذى سيق البارودى وصحبه للانضواء تحت لوائه ، وبين جيوش الروس كثيرة العدد قوية العتاد •

ومع أن البارودى قد تعشق الفروسية منذ صباه ، وكان ولعا بخوض المعارك • أو مشاهدة وقائعها وقراءة أوصافها منذ حداثته ، نراه برما بهذه الحرب ضائق الصدر من ويلاتها فى هذا الوضع بالذات •

وليس ذاك عن جبن منه وقصور فيه ــ وهو رب السيف والقلم ــ الذى انخرط فى سلك الجندية منــذ مطلع شبابه ، وآثرها عن غيرها ، كما هو معلوم من ترجمة حياته ، كما أن شعره غاص بملاحم البطولة وأوصافها وتصوير مقومات الفارس الشجاع ، كقوله فى موطن الفخر بنفسه والاشادة بشجاعته :

لهج بالحروب لا يألف الخفــ ... ض ولا يصحب الفتاة الرداحا
مسعر للوغى ، أخو غــــدوات ... تجعل الارض مأتما وصياحــا

ولكن فيما يبدو أن البارودى كان يشعر من أعماقه ، أن هــذه الحرب لا ناقة له فيها ولا جمل ــ وانه أولى به أن يدخر جهده حتى يدسعه موضعه الصحيح فى حرب تعود فائدتها على وطنه وقومه حتى يتحرر من تبعيته الى تركيا ، وحتى يتخلص من سلاطينه الذين امتهنوا كرامته وسلبوه حريته ، ولذا نراه كان يحرص على الثورة فى شعره للخلاص من هؤلاء واولئك ، كما أنه كان زعيما من زعماء الثورة العرابية تلك التى ترجمت المشاعر القومية المتأججة فى نفوس الوطنيين الى واقع عملى ملموس ، وكان من نتيجتها أن نفى البارودى ورفاق له من زعماء الثورة الى خارج وطنهم •

هــذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، أن دوران الحرب فى ذلك المكان النائى السحيق ، وما ترتب عليه من تغريبه وابعاده عن وطنه الحبيب وآله وصحبه كان مبعث القلق النفسى ، وذاك الضيق الذى امتلأت به ذاته كما يترجم عنها هذا (البيت ٤٠) •

نأت بى عنكم غربة وتجهمــت ... بوجهى أيام خـــلائقها نكـــد

وقد كان البارودى صادقا فى تصوير معانى هذا الغرض ــ وان جنح به خيال الشاعر فى تصوير بعضها ، وقاده الى شىء من الغلو غير قليل ــ فذكر ضخامة جيش الروس وقوة عتاده وشدة همته فى التحفز

الى الحرب والتحمس الى النزال ، مما يكون القتال معه شرسا شديدا ، ويدون انتزاع النصر من العدو دليلا على بسالة جيشه وقوة شكيمته .

كما صور تحفز جيش العثمانيين لملاقاة عدوه . وبين كيف استقتل الجند واستماتت الجموع فى ميدان الوغى ، ثم وصف الجمع الحاشد من الفريقين وهو يتداعى متواليا فى جماعات ، تحمل حملا سريعا متلاحقا ، يخاف من هوله الشجاع ويفرق منه قلب الصنديد ، بل وربما حدثته نفسه بالفرار من ساحة الحرب والهروب من ميدان القتال .

وفى حديثه عن أرض المعركة وميدان الاقتتال أشفق على الغاية ، وبين كيف خضبت هذه الأرض بالدماء التى تدفقت فى غزارة كأنها الجدول المنساب ، من نزيف جثث القتلى وكلوم الجرحى وأشلاء المصابين ثم صور كيف كانت هذه المعركة فى تلاحم وتراجع مستمرين ، يتلاحم الجند حتى يكل السلاح فى أيديهم ، فيتراجعوان لجمع الشمل وتنظيم الصفوف وتعديل الخطط وتغيير الأسلحة ، ثم ينقضون مرة أخـــرى ، وهكذا — دواليك — .

كما صور ما أسفرت عنه المعركة فى نهاية كل يوم من أيامها ، وكيف أصاب جند الروس ما أصابهم من قتل وأسر واذلال وتشريد .

وهم على هـــذه الحال نهارهم ، حتى اذا جن الليل ، انصرفوا للتشاور فيما بينهم تأهبا ليوم لاحق يكون فيه القتال أكثر ضراوة ، ولهيب المعركة أقوى استعارا .

هـــذا ما قام به الجيش العثمانى فى هـــذه الحرب كما صوره البارودى ، الذى لم ينس نفسه وما قامت به من دور بطولى فى خضم معركة البلقان ، نال من أجله أوسمة الدولة ونياشينها ، فذكر أنه خاض المعركة ، وعدته فيها جواد صلب وسيف باتر ، يؤازرهما صبر مستميت

وهمة فارس شجاع ، صمم على انتزاع النصر مهما بلغت ضراوة المعركة ، ومهما اشتد تطاير غبارها أو حمى وطيس نارها وتلبدت سماؤها بالغيوم .

وفي هـذا الغرض صور الشاعر نفسه بأنه ليث جسور يقتحم ، وسيف صليت يجذ ، وأنه يحمل عزيمة شجاع فاتك ، وقلب همام صؤول ، بينما الأبطال من دونه يتهامسون حورا ، وربما حدثتهم أنفسهم بالفرار ، وقد غالى في ذلك غلوا ملحوظا تدركه في قوله في البيت :

فما مهجة الا ورمحي ـ ميرها ولا لبة الا وسيفي لها عقـــد

وقد سلك في ذلك مسلك القدامى ممن قلدهم في كثير من صورهم ومعانيهم ـ كعنترة مثلا الذي يقول ـ غالبا في تصوير شجاعته :

وأنا المنية حين تشتجر القنـــا والطعن مني سابق الآجـــال

وقد تناول هـذه المعاني في الأبيات من الحادي والأربعين الى الرابع والخمسين .

اما باقي أبيات القصيدة فهي تتمة لهذا الغرض ، ساق فيها بعض النصائح والحكم ، التي استمدها من حياته وخبراته ، كما ترجم في بعضها عن ضيقه من حقد الحاقدين وحسد الحاسدين ، الذين لم يسلم من كيدهم وأذاهم ، مؤكدا على أنه ماض في حياته ، غير آبه بحسدهم ، لان أصالته تأبى عليه أن يثني عن عزيمته ، أو أن ينصرف عن ابائه وهمته ، وقد سيطرت على هذه الأبيات روح الفخر والحماسة اللذين حدهما بغرض سابق من أغراض قصيدته .

وفي هذا دليل على تناثر الأفكار واضطراب الأحاسيس في قصيدة واحدة ، شأن القدامى في كثير من شعرهم الذي صوروا فيه مجموعة من الأفكار وتناولوا فيه أكثر من غرض ، حتى كان ذلك منارا لسهام النقـد ـ التي وجهت اليهم والى من تقيد طريقتهم ـ من نقـادنا المعاصرين[1] .

---

(١) أنظر في ذلك : الديوان في الأدب والنقد للعقاد والمازني .

(٢) التجربة الشعرية :

تعنى التجربة الشــعرية فى مفهوم النقد الأدبى الحديث ــ تأثر الشاعر بكل ما تقع عليه حواسه من صور وأحداث ، أو يدور فى نفسه من خواطر وأفكار يطوف حولها مستغرقا ، يستشف جوانبه ويستكشف معالمها حتى تتضح فى نفسه صورتها وتتضح مشاعره وانطباعاته ازاءها ، فاذا اكتملت هــذه الصورة بأبعادها تأملا ووضوحا ومشاعر كانت « تجربة شعورية ، مكانها الوعى الداخلى فى الانسان » •

وهــذه التجربة الشــعورية حين تلبس حلتها من الشعر تسمى (تجربة شــعرية) •

وحتى تكون هــذه التجربة مثيرة ، لا بد أن يظهر فيهــا عنصر الصدق والاقتناع النفسى للشاعر ، فتجىء تعبيرا مخلصا أمينا عن شعوره ووجدانه ، لأن ذلك الصدق هو الذى يمنحها القوة والقدرة على اثارة القارىء وهز مشاعره [١] •

وقد تحقق هــذا المفهوم فى قصيدة البارودى هــذه الى حد كبير ، ذلك أن كل المعــانى التى صورتها أبيات القصيدة ، هى صدى لتأثر الشاعر بما جاش فى أعماقه من مشاعر الشوق وعواطف الحنين الى وطنه ، وبما وقع عليه حسه من مشاهد وأحداث تفاعلت معها خواطره وتأملاته ، وبقيت هــذه الخواطر والتأملات كامنة فى أعماقه فى بؤرة الشعور ، حتى صورها تصويرا فنيا فى أسلوب شعرى جميل جسد هــذه الخواطر وجسم تلك المشاعر •

ونظرة متعمقة فى تجربة البارودى هــذه نرى أن الشاعر لم يفتعل التجربة أو يتكلف معانيها ، وانما استمدها من واقع مشاهداته

---

(١) اتجاهات وآراء فى النقــد الحــديث ص ٣٨ ، ٣٩ د / محمــد نايل •

وتأملاته ، ونسج خيوطها من أعماق حسه وانفعاله بمواطن ذكرياته ، ومن ثم اتسمت تجربته بالصدق الشعورى والبعد عن الزيف أو تكلف الاحساس ، أو مجاراة الآخرين فى شعورهم لينال رضاهم ، كما يفعل كثير من المتشاعرين [1] .

ولما كانت أفكار القصيدة - كما رأينا - تدور حول معانى الشوق والحنين والفخر والحماسة - فان هذه المعانى قد استمدها الشاعر من نبض وجدانه وأحداث حياته فى فترة من الفترات ، هى التى كان فيها مغتربا عن وطنه ، يحارب فى البلقان فى صف الدولة العثمانية ، ومن ثم فانه لم يختلق التجربة أو يتكلف الاحساس فيبعد عن عنصر الصدق الذى ينبغى أن تتسم به التجربة - وتسقط قيمة شعره ، بل أتت معانى قصيدته مطابقة لوجدانه معبرة عن حقيقة مشاعره وانطباعاته .

ولقد تمكن البارودى من تصوير تجربته تصويرا فنيا جميلا ، من ناحية صياغته وأسلوبه وصوره وموسيقاه ، ووائم بين هذه العناصر كلها فى حدود امكاناتل الفنية - كما سنرى .

(٣) العاطفـــة :

العاطفة عنصر مهم من عناصر الشعر ، والشاعر أو الأديب بعامة يهمه كشف جميع الأشياء وبيان تأثره بها ، على عكس العالم - الذى يهمه كشف الحقائق .

ولقد فطن اليها نقادنا القدامى ، وان لم يطلقوا عليها هذا الاسم ، فعرفوا الرغبة والرهبة والطرب والغضب وما اليها من عواطف ، وربطوا

---

(١) من نماذج هذا اللون شعر النفاق السياسى والاجتماعى ، وشعر الغزل المتكلف والرثاء المصنوع ، مما تغص به كثير من دواوين المعاصرين .

هذه العواطف بأغراض الشعر • فمع الرغبة يكون المديح ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع(٢) •

ولقد أشار ابن قتيبة الى انواعها حين قال : « وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتخلف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب » (١) •

كما عرفوا كذلك العاطفة الصادقة والعاطفة الكاذبة ، والقوية المؤثرة واستمرار العاطفة فى القصيدة كلها ، وان لم يشيروا الى ذلك صراحة •

والعاطفة القوية هى التى تحرك الأحاسيس وتحيى الشعور وتغذى النفس وتوحى بالمطلوب ، ولابد أن تكون مستمرة ثابتة فى النص ، بحيث لا يحس القارىء بجذوة اشتعالها ، ثم لم تلبث أن تخمد وتقل حرارتها ، عنده ، والعواطف الحية ينبغى أن تظل دائمة فى فصول النص الأدبى كله لا تقل حرارتها ولا تخمد جذوتها (٢) •

وعند التطبيق على قصيدة البارودى التى بين ايدينا ، نرى أن العاطفة فيها قد بدت قوية حارة ، وذلك فى مواقف تصويره مشاعر الشوق آلام الفراق والحنين الى مواطن ذكرياته وديار أحبته •

ولكن حرارتها هدأت حين تريث وخمدت فيه جذوة الشوق وركن الى التصبر والتماسك كما رأينا فى قوله :

فياقلب صبرا ان ألم بك النوى
فكل فراق أو تلاق له حد

---

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١/١٢٠ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد •

(١) الشعر والشعراء ١/٧٨ تحقيق أحمد محمد شاكر •

(٢) انظر ذلك مفصلا فى أصول النقد الأدبى للأستاذ أحمد الشايب ، وفى : النقد الأدبى للأستاذ أحمد أمين •

فقـــد يشعب الألفـــان أدناهما الهـوى
ويلتئم الضـــدان أقصـــاهما الحقــــد

على هـــذه تجـــرى الليـــالى بحكمهـا
فآونــة قـــرب وآونــة بعــــــد

وهـذا منطق العقل الحكيم ، لا منطق العاطفة الهائجة ، ولكن عاطفة البارودى لم تلبث أن قويت لما عاد الى تصوير مشاعر الشوق والحنين مرة أخرى ، بيد أنها كانت أقل حرارة مما بدأت به فى الأبيات الأولى من القصيدة •

ومعنى ذلك أن البارودى قد وقع فى تفاوت عاطفى ازاء ترجمته من معانى قصيدته هـذه ، فتارة عاطفته حارة قوية ، وتارة أخرى ترى عاطفته أقل حرارة وقوة وان لم تصل الى حد الفتور أو الضعف وبعض النقاد يعزو عدم القدرة على ابقاء العاطفة مستمرة فى نفس الأديب على درجة واحـدة طوال مدة الانشاء لأسباب تتعلق بدرجة تأثره وانفعاله •

ويرى البعض : أن استمرار العاطفة على قوة واحدة يصعب فيما طال من القصائد الشعرية ، وهو أصعب منه فى الملاحم والقصص(١) •

ونحن نرى : أن البارودى لم يكن فى مقدوره أن يحتفظ بنوع واحد من الاستمرار على قوة العاطفة وحرارتها من أول القصيدة حتى نهايتها ، ولم يكن بد من هذا التفاوت الذى وقع فيه ، كما أن هـذا التفـــاوت لا يعيبه ، وذلك لأن قصيدته قد عبرت عن مجموعة من الأفكار والأغراض المتفاوتة أو بمعنى أدق تناوبتها ، عواطف الشوق والحنين والعتاب والحماسة كما لم تخل من بعض النصائح والحكم ، ولا يمكن أن تتقمص عاطفة من هـذه العواطف خصائص الأخرى •

---

(١) راجع محاضرات فى النقد الأدبى د/ حفنى محمد شرف ص ٤٨ •

ومن ثم أتت العاطفة عنده متباينة ، فهى قوية تارة ، هادئة أخرى حارة تارة ثالثة ، مترينة رابعة ، تبعا لتصوير المعانى التى تناولتها ، والتى اختلفت درجة تأثره وانفعاله بكل منها على حدة .

(٤) المعانى والصياغة :

المعانى فى قصيدة البارودى هذه ، وربما فى شعره كله قريبة المأتى ، واضحة القصد ، بعيدة عن التعمق الذى تدركه فى معانى كثير من الشعراء ، الذين درسوا الفلسفات أو غاصوا فى مسائلها قديما وحديثا وظهر صداها قويا فى شعرهم لاسيما فى معانية وأفكاره .

والسر فى ذلك أن البارودى لم يكن ولعا بغير الأدب وما يرتبط به من قريب ، وان ظهرت الحكمة فى شعره أحيانا ، ولكنها الحكمة الفطرية ، التى لا تحتاج الى اطلاع على كتب تلك الحكمة لشيوع القول بها على ألسنة بعض الناس — كما يقول الأستاذ العقاد فى دراسة له عنه(١) .

كما أن معانيه فى جملتها ليست مبتكرة أو مخترعة ، بحيث يصح نسبتها اليه وحده دون من سبقه من الشعراء الذين قرأهم وتأثرهم وحاكاهم فى شعره معنى ومبنى .

فهو مثلا لم يزد فى تصوير شجاعته عن المعانى المطروقة التى حللناها فيما سبق ، وفى تصويره شوقه وحنينه لم يزد على ما قاله القدامى من معان مكرورة معادة ، بل لا أظننى مغاليا اذا قلت : ان كثيرا من هذه المعانى عرفها بعض شعراء العصر العثمانى ، وان فقدت قيمتها عندهم وسط احتفالهم بالبديع واحتشادهم للصنعة .

وهذه أبيات من قصيدة للشيخ عبد الله الشبراوى(٢) ، تدورمعانيها

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢٧ .

(٢) هو الشيخ عبد الله شرف الدين الشبراوى كان من أكابر علماء الأزهر فى عصره ومن أشهر شعراء زمانه (توفى سنة ١١٧٣ هـ) :

حول الحنين الى مصر والتشوق اليها وهى بعض ما تناوله البارودى فى قصيدته : يقول :

أعـــد ذكـــر مصر ان قـــلبى مولـــــع
بمـــصر ، ومـــن لى أن تـــرى مقـــلتى مصرا؟

وكرر على سمعـــى أحاديث نيلها   فقـــد ردت للأمواج سائله نهرا

بـــلاد بهـــا مد السماح جناحـــه   وأظهر فيها المجـــد آيته الكبـــرى

رويـــداإذا حـــدثتنى عن ربوعهـــا
فتطويـــل أخبـــار الهوى لـــذة أخـــرى

لقـــد كان لى فيهـــا معـــاهد لـــذة
تقضـــت وأبقـــت بعـــدها أنفســـا حســـرى

ومع هذا فيجمد البارودى صحة المعانى ووضوحها ، وبعدها عن الخطأ والفساد والاحالة ، وان مال الى المبالغة فى بعضها ، كما رأينا سابقا ، وبخاصة فى مواطن الفخر والتعبير عن الشجاعة •

أما صياغة القصيدة ، فهى متينة التركيب قوية النسج ، قوية الأساليب ، ألفاظها فصيحة جزلة بعيدة عن الركاكة والابتذال والعامية التى تفشت فى الشعر فى عصره وما قبله ، حتى كادت تقضى على لغة الشعر وما لها من مقومات •

وهذه ميزة من مزايا البارودى ، حيث استطاع أن يثب بالعبارة الشعرية وثبة أعادت الى الشعر روحه وبعثت فيه حياته ، وتمكن من أن يعيد الى شعرنا المعاصر اطاره العربى المتين ، وقالبه الفصيح ، الذى هجره الشعراء عن عجز وبلادة طوال عدة قرون •

والفاظ البارودى فى شعره وان كانت جزلة قوية فى مجموعها ، بيد

انها تختلف فيه من غرض الى غرض ، ومن معنى الى آخر فى القصيدة الواحدة تبعا لاختلاف العواطف وتنوعها .

وما يلزم كل عاطفة من ألفاظ تبرزها فى صياغة فنية معبره عن حرارتها وقوتها أو عذوبتها ورقتها [1] .

فالفاظه ترق فى موضع الشوق والحنين ، لأن هذه العواطف تناسبها عذوبة اللفظ ورقته دون قوته وفخامته ، بينما تقوى هذه الألفاظ وتفخم فى مواطن الحماسة والفخر وتصوير المعارك وما اليها ، لأن هذه المعانى تتطلب قوة اللفظ وفخامته وصخب جرسه ورنين موسيقاه .

ومن ذلك أنه استخدم فى حديثه عن تشوقه وحنينه الى وطنه هذه الألفاظ وما شابهها :

الشوق ــ اللوعة ــ الوجد ــ برد ــ ألذ ــ الأسى ــ نفحة عنبرية الحسناء ــ العطف ــ الود ــ الصد ... الخ وهى ألفاظ عذبة رقيقة فى حروفها وبنائها وجرسها ودلالتها الصوتية .

وفى ترجمته عن معنى الحماسة وتصوير الشجاعة والبطولة التى أبداها فى المعركة نراه ــ يستعمل هذه الألفاظ الفخمة الموحية بمعنى القوة والبسالة: جوائب ــ الشر ــ القنا ــ الموت ــ الجعد ــ الدماء جداول ــ الجزر ــ والمد ــ نشلهم ــ شل العطاش ــ مقتول ــ طريح ــ يجاذبه القد ــ مراغمة السقيا ــ نقع ــ كلج البحر ــ الدجى ــ ينغل ــ العجاج ــ الليث ــ الطوى ــ صؤول ــ الرمح ــ السيف .. الخ .

---

(١) أنظر فى ذلك كتاب : المثل السائر لابن الآثير . واتجاهات وآراء فى النقد الحديث د/محمد نايل .

(٥)الصـــورة الأدبية :

الخيال في النص الأدبي عنصر من عناصره الرئيسية . وهو في الشعر أساس من أسسه التي تعمل على اثارة العواطف ، كما أنه وسيلة الأديب أو الشاعر في نقل مشاعره وتجسيم عواطفه ومعانيه .

والشاعر الحق هو من يرى الأشياء برؤية غنية خاصة به هو فتبين ما فيها من جمال أو غيره ، ثم يعرضها على قارئيه ومتذوقي فنه ، كما أحسها وأدركها وذلك في صورة مجسمة محسوسة يمكن للقارئ أن يتمثلها وكأنها حقيقة ملموسة ، وعلى قدر براعة الشاعر في هذا التجسيم يمكننا أن نقف على أسرار هذه الأشياء التي صورها فيتملكنا الاعجـاب والرضـــا (١) .

والنقد الحديث يطلق على هذا الطريق الذي يسلكه الشـــاعر والأديب لعرض أفكاره ومشاهداته وتجاربه عرضا أدبيا مؤثرا فيــه متعة واثارة : ــ الصورة الأدبية ــ وهذه الصورة يلونها الخيال ويجلوها من خلال المشاعر ، ويعلو بها عن أصلها الحقيقي الواقعي (٢) .

وصور الخيال في الشعر تأتي جزئية وكلية .

فالصورة الجزئية هي ما تستقل بمشهد صغير أو فكرة محددة تبرزها في اطار خاص يصلح لعرضها في كيان مستقل .

والصورة الكلية هي مجموعة هذه الصور الجزئية التي يتبع بعضها بعضا في تتابع وتسلسل وفي اتساع ونمو ، حتى تكتمل من مجموعهــا الصورة الكبرى أو الكلية .

---

(١) أصول النقد الأدبي ص ٢١١ أحمد الشايب .

(٢) اتجاهات وآراء في النقد الحـديث ص ٧٩ ومـا بعـدها د/محمد نايل .

وهذه الصورة الكلية يتعاون فى تأليف أجزائها الألوان والظلال والحركات ووحى الألفاظ وموسيقاها فى النص ، وتكون الصورة الجزئية فى خدمة هذه الصورة الكلية •

والصور الشعرية التى ألفها خيال البارودى فى هذا النص ، يغلب عليها التصوير الجزئى ، الذى يتمثل فى مجازاته واستعاراته ، ويمكنك أن تدرك بعضها فى قوله البيت السادس :

لعل حديث الشوق يطفىء لوعـــة ⠀⠀⠀ من الوجد أو يقضى بصاحبه الفقد

فلقد جعل الشوق حديثا ، وجعل اللوعة — وهى حرقة الوجد تطفأ كما تطفأ النيران ، والفقد يقضى وهكذا على سبيل التخيل ، وهده صورة جزئية جسمت المعنى وشخصت الفكرة وجعلت القارىء يتمثل العواطف التى جاشت فى أعماق الشاعر تمثلا واضحا قويا •

وفى قوله فى البيت الحادى عشر :

دعتهم اليهـــا نفحـــة عنبريـــة ⠀⠀⠀ وبالنفحة الحسناء قد يعرف الورد

تخيل النفحة انسانا يدعو ويملك الدعوة — وهكذا •

وفى البيت التاسع والثلاثين :

هو الحب لا يثنيه نأى وربمـــا ⠀⠀⠀ تأرج من مس الضرام له النـــد

صورة جزئية جميلة قوامها — نأى يثنى ، وحب لا يثنى — على طريق الاستعارة المكنية ، وقد ساعد على جمال الصورة هذا التشبيه الضمنى البديع — كما بيناه فى موضعه — •

ولكن مثل هذه الصور التى ألفها خيال البارودى صور قديمة عرفها القدامى فى أخيلتهم ، واستعارها البارودى فى شعره ، الذى كان ولعا فيه ببعث القديم واحياء صوره وأساليبه — كما علمت — وهذا لا يعنى على الاطلاق أن الشاعر بعد بشعره عن مبتكرات عصره ومظاهر بيئته فى تصويره الجزئى • أو أنه اكتفى بهذا اللون التصويرى فقط ، ولم يهتد

الى التصوير الكلى الذى يتطلب خيالا فسيحا خصبا ، يؤلف من مجموعة الأشياء صورة دقيقة معبرة .

وانما استمد البارودى بعض صوره الجزئية أحيانا من مخترعات عصره ، كقوله فى بيت من غزلياته :

وسرت بجسمى كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر

كما كانت تشع بعض الصور الكلية فى شعره . ولكنها قليلة .

ومن نماذجها فى هذه القصيدة أبياته فى وصف معركة البلقان وتصوير جو هذه المعركة وأحداثها ، وما كانت تموج فيه من حركة ، وما أسفرت عنه من نتيجة ، تصوير أدبيا رائعا تضافرت فى تأليف أجزاء صورته الكلية مجموعة الصور الجزئية بداخلها ، كما عاونت فيها : الأصوات والألوان والحركات .

وتلك فى الأبيات من : الحادى والأربعين الى الرابع والخمسين .

فأنت تسمع الأصوات فى : صرح الشر باسمه ، وفى صياح قنا الموت ، وتدافع الجند ، وهمس البطل الجعد ، واشتباك الجند ، وحركة البحر ما بين مد وجزر وغيرهما .

وترى الألوان فى : ضوء الصباح ، حمرة الدماء ، وبياض النجوم ، وسواد الجو من تطاير النقع .

وتدرك الحركات فى : الجند الجواثى ، وسير المحاربين ، واستقتال الجند ، وتشابك الجنود وتراجعهم ، وشل العدو وتقتيله ، وهروبه ، وأسره ومجاذبة القد ، ونحوها .

(٦) الوحـدة فى القصـيدة :

يرى بعض النقاد المعاصرين : أنه ينبغى فى القصيدة أن « تكون عملا فنيا تاما ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها » .

كما يرى : « أن القصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ... الخ [١] » .

ومعنى هذا أن قصيدة البارودى التى بين أيدينا ، قد خلت من هذه الوحدة ، التى أطلق النقاد عليها حديثا ــ الوحدة العضوية ــ والتى اشترطها قديما أرسطو فى الشعر الملحمى والشعر التمثيلى وأعفى منها الشعر الغنائى على ما هو مفصل فى مظانه [٢] » .

ولقد كان هذا العنصر من عناصر الشعر مثار لمناقشات حادة صاخبة بين دعاة المذهب التجديد فى الشعر ، وبين اتباع القديم وأنصاره من الأدباء والنقاد ، وترتب عليها ما ترتب من الغض من قيمة شعرنا القديم وما جرى مجراه فى رأى انصار الوحدة العضوية .

ونحن لا يعنينا هنا عرض ومناقشة آراء الفريقين ، بمقدار ما يعنينا استنباط مقومات هذه الوحدة فى شعر البارودى ومنه هذه القصيدة .

---

(١) الأستاذ العقاد فى كتاب الديوان ص ١٣٠ ط دار الشعب .
(٢) انظر : النقد الأدبى الحديث د/محمد غنيمى هلال فى مبحث ــ الوحدة العضوية ــ واتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٥٢ د/محمد نايل .

وبدهى أن هذه الوحدة ليست وحدة عضوية ـــ بالمعنى الدقيق الذى تضمنه هذا المصطلح النقدى ، لأن البارودى قد ضمن قصيدته مجموعة من الأفكار التى بدت متناثرة موزعة فى ثنايا القصيدة • تلمس معها اضطراب أحساسيس الشاعر وتوزع منساعره ، وهذا عيب يخل بفن الشعر وبنائه فى مفهوم النقد الأدبى الحديث •

وربما كان للبارودى عذر فى ذلك ، فلقد انفعلت نفسه بمجموعة من الخواطر والأفكار التى تأملها ثم صاغها شعرا ، بعد أن اختمرت آثارها فى أعماقه ، وليس عليه من بأس فى ذلك •

ويخطىء من يرى أن قصيدته هذه قد خلت من الوحدة الفنية تماما بدعوى أن الوحدة فيها غير عضوية ، وانما الوحدة فيها قائمة مهما قلل من شأنها العضويون ، وهى تتمثل فى وحدة الروح ووحدة المشاعر ، وتجانس الصياغة الفنية فى أسلوب القصيدة بين أفكارها وصورها وهذا وحده كاف فى تحقيق الوحدة فى القصيدة الغنائية بعامة •

(٧) البناء الفنى :

نهج البارودى فى بناء قصيده كله ومنه هذه القصيدة منهج القدامى فى تأليف شعرهم وبنائه ، من حيث تعدد الأغراض ، وتنوع الأفكار ، والوقوف على الديار ، ومخاطبة الصحب ، والانتقال من غرض الى غرض ثم العودة الى غرضه الأول مرة أخرى ، هذا مع التزامه بفصاحة اللفظ وفخامة الأسلوب ، وتنوع الصور ووحدة الوزن والقافية وغير ذلك مما تميزت به القصيدة العربية القديمة •

(٨) الموسيقى :

أما الموسيقى فى النص فهى موسيقى رتيبة تمثلت فى وحدة الوزن ووحدة القافية وقد اختار لها وزنا طويلا يتكون البيت فيه من ثمانى تفعيلات — أى ثمانى وحدات موسيقية — يسهل معها أن يصب الشاعر أفكاره ومعانيه فى قالبها دون أن تضيق بها •

وهذه التفعيلات من البحر الطويل :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعـــلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

كما استعان فى رتابة هذه الموسيقى وتأليف أنغامها بالألفاظ ذوات الجرس الموسيقى الملائم للعرض والدال على المعنى • وبالصور الشعرية والمواءمة بينها وبين بعضها من جهة ، وبينها وبين الألفاظ من جهة ثانية ، ويطلق على هذه العملية — الموسيقى الداخلية — ، التى يساعد على تحققها فى النص وحدة المشاعر والأفكار والأحاسيس بالأضافة الى ما ذكرته •

ولقد التزم البارودى فى شعره كله بالنظم فى القالب الموسيقى المــأثور الذى تنوعت أنغامه تبعا لتنوع بحور الشعر العربى ، التى استنبطها الخليل ابن أحمد والتزم بها الشعراء فى الأغلب ، حتى طغت موجة التجديد فى هذا العصر فتحلل الشعراء رويدا من قيود هذا الوزن، بل ان كثيرا منهم هجره وحاربه بدعوى أنه يضيق على الشعراء ويلزمهم بالتقيد بموروثات عهود غابرة ، وهذه الدعوى أثبت الواقع زيفها ، اذ لم تعلق بالأذهان نماذج أصحاب هذه المحاولات لخلوها من الرتابة الموسيقية التى ألفتها الأذهان ، وعرف بها الشعر العربى منذ القدم ، حتى كانت سمة من سماته وعنصرا رئيسيا من عناصره •

ولم يخرج البارودى عن هذه البحور الا فى وزن واحد اخترعه هو ، وصاغ عليه قصيدته الراقصة التى مطلعها :

امــــلأ القــــدح واعص من نصـــــح

وارو غلنى بابنــــــة الفـــــــرح

فالفــــتى مــتى ذاتهــا انــشرح ... الخ

ولقد قلده شوقى فى هذا الوزن فى قصيدته التى مطلعها : —

مـــــال واحـــتجب وادعـــى الغضـــب

ايت هاجـــــرى يـــــشرح الســــبب

ووزن القصيدتين : فاعلن علن فاعلن علن

ومن الطريف أن — حافظ ابراهيم — اخذيتهكم على هذا الوزن الجديد :

وعارض — شوقى — فيه بقصيدة هزلية على هذا الوزن مطلعها :

شـــال وانخبـــط وادعـــى العبـــط

ايت صـــــاحبى يبـــــلع الزلـــــط

وطلب من حاضرى مجلسه من الشعراء أن يجيزوه على هذا النمط . فأجازوه حتى بلغوا بالقصيدة ستين بيتا (١) .

وهذه القصة على طرافتها تعنى — فيما نرى — مدى تمسك أتباع مدرسة البعث من الشعراء المحافظين بمنهج التدامى فى بناء شعرهم وما له من مقومات ، ونفورهم من التجديد الذى يمسخ الشعر ويحوله الى طراز غير مألوف بالنسبة لهم ، وقد كان هذا مثار حملة خصومهم عليهم من جيل المذهب الجديد — كما سنرى .

* * *

---

(١) فلاسفة وصعاليك ص ٦٤ للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف .

٣ — قصيدة حافظ ابراهيم

قالها فى استقبال اللورد كرومر عند عودته من مصيفه بعد حادثة دنشواى .

النص

(١) (قصر الدبارة) هل أتاك حديثنا
فالشرق ريع له وضج المغرب

(٢) أهلا بساكنك الكريم ومرحبا
بعد التحية اننى أتعتب

(٣) نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة
باتت لها أحشاؤنا تتلهب

(٤) ماذا أقول وأنت أصدق ناقل
عنا ولكن السياسة تكذب

---

١ — يخاطب الشاعر فى هذا البيت القصر ويريد صاحبه (اللورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر آنذاك ، وريع بالبناء للمجهول من الروع وهو الفزع .

٢ — التعتب فى قوله (أتعتب) هو تواصف الموجدة ومخاطبة المدلين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم والبيت يحمل معانى التهكم والسخرية لكرومر .

٣ ، ٤ — يشير بالبيتين الثالث والرابع الى مقتطفات من تقرير اللورد كرومر عن مصر نقلها البرق الى الصحف المصرية ، وفيها يطعن على المصريين ويصفهم بأنهم لا يرعون جميلا .

(٥) علمتنـــــا معنى الحيــــاة ؤمـــالنـــا
لا نشرئــب لهـــا ومــالك تغضـــــــب

(٦) أنقمت منـــــا أن نحس ؟ وانمـــــا
هـــذا الــذى تدعـــو اليــــه وتنـــدب

(٧) أذاك الـــذى يعزى اليـــه صـــلاحنـــا
فيمـــا تقـــرره لديـــك وتـــــكتب

(٨) ان ضـــاق صـــدر النيـــل عما هـــاله
يـــوم الحمـــام فان صـــدرك أرحـــب

(٩) أو كلمـــا بـــاح الحـــزين بأنـــة
أمســت الى معـنى التعصـــب تنســـب!

(١٠) رفقـــا عميـــد الدولتـــين بأمـــة
ضـــاق الرجـــاء بها وضـــاق المـــذهب

---

٥ ــ اشرأب يشرئب اشرئبابا : مد العنق للنظر • والمراد بها في البيت لم ندرك معنى الحياة الحرة الكريمة فى ظلك •

٦ ــ ندبه الى الأمر : دعاه اليه •

٧ ــ يعزى اليه : ينسب اليه • يشير الى ما كان يكتبه اللورد كرومر فى تقريراته من أنه هو الذى جلب الخير والرفاهية لمصر •

٨ ــ يوم الحمام : أى يوم صيد الحمام الذى هو سبب حادثة دنشواى المعروفة •

٩ ــ الأنة : من الأنين وهو التأوه ، ويشير الى ما وجه الى المسلمين فى مصر من التعصب الدينى ، وأن ذاك التعصب كان السبب فى قتل الانجليز فى دنشواى •

١١ ــ رفقــــا عميــد الـــدولتين بأمــة
ليســــت بغـــير ولائهـــا تتعـــذب

١٢ ــ ان أرهقـــوا صـــيادكم فلعلــــهم
للقـــوت لا للمســـلمين تعصـــبوا

١٣ ــ ولربمــــا ضــن الفقـــير بقـــوته
وســـخا بمهجتـه على من يعصــــب

١٤ ــ فى (دنشــــواى) وأنت عنــا غــائب
لعــب القضــــاء بنا وعــز المهــــرب

١٥ ــ حسبوا النفوس من الحمــام بديلــة
فتســـابقـــوا فى صيدهـــن وصــــوبوا

١٦ ــ نكبـــوا وأقفـــرت المنـــازل بعـــدهم
لو كنت حـــاضر أمــرهم لم ينكبــــوا

---

١٢ ــ أرهقوا صيادكم : اعتدوا عليه وآذوه ، ويريد بالصــياد أحد ضباط الانجليز الذين كانوا يتصــيدون الحمــام فى دنشــواى ولاقى حتفه هناك •

١٣ ــ ضن : بخل • وسخا بمهجته •• ألخ ة أى بذل نفســـه فى دفع من يغصبه طعامه • ويشير بهذا الى ما حدث من بعض هؤلاء الصيادين حين أطلقوا النار على الحمام فأحرقت بعض أجران القمح هنــاك •

١٥ ــ صوب : سدد ويقال صوب السهم نحو الرمية بالتشديد اذا ســدده •

١٧ — خليتهم والقاسطون بمرصد
وسياطهم وحبالهم نتأهب

١٨ — جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا

١٩ — شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
بلظى سياط الجالدين ورحبوا

٢٠ — يتحاسدون على الممات ، وكأسه
بين الشفاه وطعمه لا يعذب

٢١ — موتان : هذا عاجل متنمر
يرنو ، وهذا آجل يترقب

٢٢ — والمستشار مكاثر برجاله
ومعاجز ومناجز ومحزب

---

١٧ — القاسطون : الظالمون الجائرون عن الحق ، قال الله تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) . والمرصد : المرقب .

١٨ — منيتهم : أى خيرتهم فيما يتمنونه من أخف أنواع العذاب .

١٩ — أهلوا ورحبوا : أى قالوا أهلا ومرحبا .

ومعنى البيتين : أن كلا ممن جلد وشنق رأى فى عذابه من الشدة ما تمنى معه أن يستبدل به عذاب أخيه ، واللظى النار أو لهبها .

٢١ — المتنمر : الغاضب تشبيها له بالنمر ، لأن من عادته ألا يلقاك دائما الا متنكرا غضبان .

٢٢ « المستشار » يريد به هنا المستر بوند الانجليزى ، وهو من قضاة المحكمة التى حكمت على متهمى « دنشواى » . والمعاجز من عاجزت الرجل اذا أتيت بما يجعله عاجزا .

والمناجز : المقاتل المبارز ، ومحزب أى مفرق أعوانه ، فبعضهم يتولى أمر الجلد والبعض يتولى أمر الشنق ... الخ .

٢٣ ـ يحتـــال فى أنحـــائها متبســـما
والدمـــع حـــوك ركابـــه يتصـــبب

٢٤ ـ طاحـــوا بأربعـــة فـــأردوا خامســـا
هـــو خـــير مايرجـــو العميـــد ويـــطلب

٢٥ ـ حب يحـــاول غرســـه فى أنفـــس
يجـــنى بمغرســـها الثناء الطـــيب

٢٦ ـ كن كيـــف شـــئت ولا تـــكل أرواحنـــا
للمســـتشار فان عـــداك أخصـــب

٢٧ ـ وأقـــص عـــلى (بند) اذا ولـــى القضاء
رفقا يهـــش لـــه القضـــاء ويطـــرب

٢٨ ـ قـــد كان حـــولك من رجـــالك نخبة
ســـاسوا الأمـــور تدربـــوا أو نـــدربوا

٢٩ ـ أقصـــيتهم عنـــا وجئت بفتيـــة
طـــاش الشـــباب بهم وطـــار المنصـــب

---

٢٤ ـ طاحوا بأربعة أى ذهبوا بنفوسهم ، وأردوا : أهلكوا . ويريد بالخامس · الحب المذكور فى البيت الآتى (٢٥) .

٢٩ ـ أقصيتهم : أبعدتهم . وطار المنصب أى خفت أحـــلامهم من الغرور بمناصبهم .

٣٠ ـ فاجعل شعارك رحمة ومودة
ان القلوب مع المودة تحسب

٣١ ـ واذا سئلت عن الكنانة قل اهم
هى أمة تلهو وشعب يلعب

٣٢ ـ واستبق غفلتها ونم عنها تنم
فالناس أمثال الحوادث قلب (١)

***

---

٣٢ ـ فالناس قلب أى متقلبون مثل تقلب الحوادث .

١ ـ ديوان حافظ ابراهيم ج ٢ ص ٢٢ وما بعدها ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠

حـــــول القصـــــيدة

١ ـــ المناســـبة :

فى يوم الأربعاء ١٣ يونية بسنة ١٩٠٦ م ، قام خمسة من الضباط الانجليز من معسكرهم ، وقصدوا الى بلدة دنشواى باقليم المنوفية من أعمال مركز تلا ، لصيد الحمام ، فأصابوا بعض أهالى البلدة برصاص بنـــادقهم ، وقد اصطـــدم هؤلاء بالانجليز وأصـــابوا بعض الضباط باصابات أفضت الى الموت ، وهناك ثارت ثائرة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية اذ ذاك ، وعقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمتهم ، وكان المدعى عمومى فيها ابراهيم الهلباوى المحامى المعروف ، وقضت هذه المحكمة بإعدام أربعة من الأهالى وجلد وحبس ثمانية منهم ، وقد نفذ الاعدام والجلد فى نفس البلد على مرأى ومسمع من أهله ، وكان فى ذلك الحكم وفى تنفيذه من القسوة ما أثار الأنفس وأطلق ألسنة الوطنيين وزعماء النهضة بما يجيش فى النفوس من أسى وحسرة •

ولقد عرف عن حافظ ابراهيم بأنه كان من شعراء الوطنية الكبار فى مصر ، وأن أحاسيسه المفعمة بحب الوطن كانت تتفاعل سريعا مع أى خطب يدهمه أو أية كارثة تحل به ، وكان يترجم هذا الاحساس فى شعر ينبض بالوطنية ويفيض بعاطفة حب الوطن والغيرة على ما ينزل به من مآسى الاستعمار وجبروته •

كما كان حافظ أسبق الشعراء فى هذا التفاعل الوطنى ، وسرعان ما كان يطلع على الأمة اثر كل حادثة وطنية بقصيدة حارة تلهب الشعور وتثير الحماس فى نفوس أبناء مصر • فلقد نشر قصيدة له عن حادثة دنشواى فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٦ قبل هذه القصيدة التى نشرها فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٦ م •

وقد استهل قصيدته الأولى بقوله مخاطبا الانجليز [1] :

أيهـــــا القـــائمـــون بالأمـــر فينـــا
هـــل نســـيتم ولاءنـــا والـــــودادا

خفضـــوا جيشـــكم وناممـــوا هنيئـــا
وابتغـــوا صيـــدكم وجوبـــوا البـــلادا

واذا أعـــوزتكم ذات طـــوق
بين تـــلك الـــربا فصيـــدوا العبـــادا

انمـــا نحـــن والحمـــام ســـواء
لم تغـــادر أطـــواقنا الأجيـــادا •

وهذه الأبيات تنطوى على سخرية مرة من الانجليز الذين عاثوا فسادا فى مصر بسياستهم الغاشمة وجورهم وعسفهم وجبروتهم ، كما تصوره الثورة الكامنة فى نفس حافظ الذى ضاق ذرعا بوجود الدخيل فى وطنه الذى كمم الأفواه وأغل الرقاب وانتهك حرمة الآدميين وجد فى القضاء على الحرية التى منحها لهم الله ــ عز وجل ــ •

كما يقول مخاطبا اياهم فى كيد ينبض بالحسرة ومراره ضاقت من مذاقها نفسه :

أحســـنوا القتـــل ان ضـــننتم بعفـــو
أنفوســـا أصـــبتم أم جمـــادا ؟

أحســـنوا القتـــل ان ضـــننتم بعفـــو
أقصـــاصا أردتم أم كيـــادا ؟

---

١ ــ ديوان حافظ ٢/٢٠

ليت شـــــعرى أتلـــــك (محكمــــة التفـــ
تيش) عــادت أم عهـــــد (نيرون) عــادا ؟(١)

ويمتلىء ديوان حافظ بالشعر الوطنى الذى يترجم فيه عن مشاعره الوطنية أصدق ترجمة ويصور فيه عواطفه أحر تصوير .

واقرأ فى ديوانه رثاءه للزعماء الوطنيين كمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول مما ينم عن حس وطنى صادق ، وهكذا شعره فى رثاء المصلحين والأدباء والقادة من أمثال الشيخ محمد عبده وأمـين الرافعى وغيرهما .

ومثل شعره فى كافة المناسبات والأغراض الوطنية الذى يسلكه فى عداد شعراء الوطنية الكبار فى مصر ، بل وفى الوطن العربى كافة .

٢ ـ أفــكار القصيــدة :

هذه القصيدة تمثل غرضا من الأغراض الجديدة التى عنى بهـا الشعراء المحافظون فى شعرهم ، وهو الشعر الوطنى الذى رصد فيه الشعراء كل ما كانت تمر به مصر من أحداث وطنية آنذاك ، وهذا اللون من الشعر الوطنى لا يكاد يغادر شيئا من ظروف الحياة فى مصر ، وهو

---

١ ـ تعرف محاكم التفتيش بالقسوة والظلم واضطهاد الناس ومصادرة أملاكهم ، ثم احراقهم من غير أن تترك لهم فرصة للدفـاع عن أنفسهم ، وقد استغلت تلك المحاكم فى اضطهاد العرب فى أسبانيا فى اخر أيامهم بها حتى تم جلاؤهم عنها فى سنه ١٦٠٩ م
ونيرون هو الملك الرومانى المعروف بالظلم والقسوة والاستبداد ، ومما ينسب اليه أنه أحرق مدينة روما ، وكان يوم احراقها يشاهد النيران تأكل المدينة وأهلها فيسر لهذا المنظر كأنما ينظر الى رواية تمثل فى ملهى من الملاهى .

مرآة صادقة لهذه الحياة بما كانت تضج به من أحداث وما كان يمر بها من مناسبات (١) .

ولقد عمل الاحتلال البريطاني لمصر على اذكاء هذا التيار الشعري وتأجيجه في نفوس الشعراء ، فبينما جد هذا الاحتلال الظالم في تعويق نهضة المصريين واغتصاب خيرات بلادهم وامتهان كرامتهم وحريتهم ، مضى أصحاب هذا التيار في التنديد بالاحتلال ومهاجمته وفضح سياسته وكشف ألاعيبه ، بحيث يمكننا أن نعد مثل هذا اللون الشعري أقوى سلاح في مقاومة الخصم والتصدي للعدو .

وقصيدة حافظ التي بين أيدينا تنتظم فكرتين أساسيتين هما .

(أ) تهكم الشاعر وسخريته من عميد بريطانيا في مصر — اللورد كرومر — الذي استباح الحرمات واستهان بحرية الشعوب ، وجد في فرض سيطرته على المكدودين المحطمين بسياط البغي المسلوبين على مشانق الاستبداد والظلم .

(ب) تصوير ما وقع بهذا البلد الوادع من حادث مروع مفزع وعدوان غاشم رهيب في مأساة حزينة نكب بها أهل دنشواي ، فأقفرت ديارهم حين تركوا الظالمين ينزلون بهم عذاب الجلد بالسياط والقتل بالمشانق ، والمستشار بوند قاضي المحكمة الانجليزي يشهد تنفيذ الأحكام في غبطة واختيال ، لا يبالي بما يتصبب حول ركابه من دموع وأحزان .

وتحت هاتين الفكرتين الرئيسيتين في القصيدة بث الشاعر أفكاره الوطنية وعواطفه الحارة ، التي تنطق بفداحة الخطب وعظم المصاب .

ويمكن القارىء أن يدرك في يسر كل فكرة من هذه الأفكار التي تشكل المعنى الوطني للقصيدة .

---

١ — راجع : التيارات الجديدة في الشعر العربي الحديث في مصر ص ١٢٨ وما بعدها . د/عبد اللطيف خليف .

٣ ــ الخصائص الفنية :

(أ) الألفاظ والمعانى :

اذا أنعمنا النظر فى قصيدة حافظ التى بين أيدينا نرى أن بعض عناصر الشعر قد تفوق فيها الشاعر تفوقا ملحوظا ، بينما قصر فى بعض العناصر الأخرى وربما كان مرد هذا القصور ــ فيما نرى ــ ملكته الفنية أو ثقافته التى تصقل الطبع وتعين تلك الملكة .

ومن العناصر التى برز فيها حافظ فى شعره وكانت موضع اشادة من نقاد شعره ودارسيه عنصر الصياغة التى عبر بها عن معانى شعره ، فألفاظه قوية جزلة فصيحة معبرة عن معناها دالة على عاطفتها ، ولقد عرف عن حافظ أنه كان يفتش عن اللفظ حتى يجد أنسبه لنفسه وأنسبه لمعناه ، ويعرض للمترادفات يقلبها حتى يختار خيرها ، وينثر كنانته ليتخير أشدها عودا وأصلبها مكرا ، ويعمد الى الأساليب يتصفحها ليوائم بين المعنى واللفظ والأسلوب .

وكان حافظ يسمى هذه العملية كلها « التذوق » ويمدح بعض الشعراء بأنه « دواق » يريد بذلك أن له ذوقا مرهفا فى اختيار اللفظ واختيار الأسلوب .

وقد بالغ فى ذلك حتى كان جهده فى اختيار الألفاظ والأساليب يفوق جهده فى ابتكار المعانى، فهو يذهب مذهب من يرى أن المعانى مطروحة فى الطريق ، وانما الاجادة فى الصياغة ، وهو يستعين على ذلك بالموسيقى ، موسيقى اللفظ وموسيقى الأسلوب وموسيقى الأوزان والقوافى [1] .

وأنت واجد فى قصيد حافظ التى نحن بصدد تحليل عناصرها تلك الخاصة من خصائص شعر حافظ ، ولا بأس من أن نعيد عليك بعضا من أبياتها لتقف على هذه السمة .

---

(١) راجع مقدمة ديوان حافظ ١/٨٩ و ٩٠ للأستاذ أحمد أمين .

يقول حافظ مخاطبا اللورد كرومر فى ألفاظ منتخبة وصياغة منتقاة :

رفقا عميد الدولتين بأمة
ليست بغير ولائها تتعذب

ان أرهقوا صيادكم فلعلهم
للقيوت لا للمسلمين تعصبوا

وأربما نسن الفقير بقوته
وسخا بمهجته على من يغضب

أو قوله :

موتان هذا عاجل متنمر
يرنو وهذا آجل يترقب

والمنشار مكانر برجاله
ومعاجز ، ومناجز ومحزب

يختال فى أنحائها متبسما
والدمع حول ركابه يتصبب

ولست فى حاجة الى أن أقول : ان حافظا أدار هذه الألفاظ ومترادفاتها فى مخيلته ثم انتخب منها ما يرضى ذوقه وينهض للتعبير عن المعنى الذى استهدفه .

أما المعانى عند حافظ وفى شعره فهى معان قريبة الفهم سريعة الادراك واضحة المغزى ، بعيدة عن العمق والتوليد والاستقصاء ، لا يعوز القارى كد ذهن أو أعمال خاطر فى قصيدها وادراك كنهها ، والوقوف على أبعادها ومناحيها ، ومن ثم كان يشترك فى فهمها عامة الشعب

وخاصته : وكان يترجم عن كل المناسبات شعرا يذيعه على الناس فتستريح اليه وجداناتهم وتطرب له ، كما كان حافظ ترجمان الأمة فى شطر غير قصير من حياته . فلا عليه من بأس اذا ساق اليها من المعانى ما تسيغه دون جهد أو روية هذا من جهة .

ومن جهة أخرى وهى الأهم — فى تقديرى — أن حافظا لم يكن موفور الثقافة منوع المعارف ، لأنه لم يك مفطورا على التقيد بقيود الدرس الرتيب والاطلاع المنظم الذى يعين على المعرفة والثقافة وهما من ألزم خصائص الوقوع على المعنى العميق والفكر الدقيق ، ولقد طبع شاعرنا على الحرية وعدم الالتزام بقيود الدرس والبحث ، وقد انحصرت روافد ثقافته — كما ذكرنا — فى الكتب الأدبية القديمة — كالأغانى — وغيره ودواوين الشعراء القدامى الذين قرأهم وأعجب بطريقتهم واختزن فى ذاكرته كثيرا من شعرهم كما أنه لم يتقن لغة أوروبية تساعده على هضم ثقافة من الثقافات الأوروبية كالانجليزية أو الفرنسية وتتيح له التأثر بهذه الثقافة فى شعره — كما كان من معاصره شوقى — مثلا . الذى أدخل الشعر المسرحى فى أدبنا العربى اثر تأثره بالمسرح الأوربى ، ولم يعز الى حافظ أنه قرأ الفلسفات المختلفة وتأثر بها فى شعره الذى خلا من كل معنى عميق أو فكر دقيق أو فلسفة قوية .

لهذا أتت معانى شعر حافظ سهلة بينة لا غوص فيها ولا استقصاء ولا توليد ، وكل ما فيها وما لها من ميزة أنها عبرت عن الأغراض الجديدة التى استوحاها من بيئته بما لهـــا من سمات ، ومن عصره ومـــا ألم به من أحداث وخطوب .

ومعانى حافظ فى شعره تكاد تكون مكرورة معادة قد وقع عليها بعض الشعراء قبله ممن قرأهم وتأثرهم . وان كان يجد أحيانا فى تصيد المعنى المبتكر أو اصابة المعنى الجديد ، وربما انقاد اليه تارة وتأبى عليه تارات .

ومثاله فى هذه القصيدة البيت الثامن الذى يقول فيه حافظ مخاطبا اللورد كرومر :

ان ضـــاق صدر النيل عما هاله يوم الحمام فان صدرك أرحب

فضيق صدر النيل — أو سكانه مما أفزعه فى حادث دنشواى الرهيب معنى مألوف ، واتساع صدر اللورد اسماع شكاية المنكوبين والمروعين اتساعا يضيق عنه النيل مع ما عرف عن هذا الطاغية من قسوة القلب وتبلد الحس معنى تهكمى ساخر جد الشاعر فى نصيده لاستمالة هذا الجبار المتسلط •

ومهما يكن فان المعنى الشعرى عند حافظ كما تبين لنا من خـــلال هذه القصيدة ، من العناصر التى لم يتفوق فيها حافظ والتى لم تصل به الى منزلة الشعراء الذين عرفوا بعمق المعنى الشعرى وغزارته ودقته •

الخيال الشعرى :

والخيال الشعرى عند حافظ فى هذه القصيدة ، بل وربما فى شعره جميعه خيال جزئى محدود لم يحلق بصاحبه فى أجواء فسيحة رحبة ، ولم يؤهله لتأليف صور شعرية تفتن فى تجسيد معانيه وتشخيصها تشخيصا مؤثرا فى الوجدان وفى عالم الحس الشعرى وتنفذ فى باطن الشىء وأغواره حتى تصل الى مكان الحياة فيه ، ثم تنقل الى القارىء ما أحسه الشاعر نقلا فنيا مثيرا ؛ لأن الشاعر الحق من يرى الأشياء بحسه ويتمثلها بشعوره ووجدانه فينفعل بها ويتفاعل معها ، وعليه أن يجد فى نقلها الى غيره مستعينا بأدواته الفنية وطاقاته التعبيرية والتصويرية •

وعلى قدر اجادته تمثل الأشياء وغوصه فيها ورسم صورة دقيقة لها بخياله الحاذق وبيانه المعبر تكمن قيمة شعره ويقوى أثره فى النفوس

يقول الأستاذ الشايب : « والشاعر الحق هو من يرى الأشياء برؤيه فنية خاصة به هو تتبين ما فيها من جمال أو غيره ، ثم يعرضها على قارئيه ومتذوقى شنه ، كما أحسها وأدركها ، وذلك في صورة مجسمة محسوسة يمكن للقارىء أن يتمثلها وكأنها حقيقة ملموسة ، وعلى قدر براعة الشاعر فى هذا التجسيم يمكننا أن نقف على أسرار هذه الأشياء التى صورها فيملأنا الرضا والاعجاب (١) .

والخيال الشعرى عند حافظ — كما قلنا — خيال متواضع محدود قل نصيبه من الابتكار وندر حظه من الافتتان فى التصور والتخيل ، وهذا بالطبع راجع الى قصور فى ملكته المبدعة وتقصير فيما ينمى هذه الملكة من اطلاع وثقافة ورحلات وما اليها من وسائل خصوبة الخيال وسعته .

وهذا الخيال الشعرى وان أصاب حافظ كثيرا من ضروبه وألوانه فى هذه القصيدة وغيرها ، فانه لم يتجاوز الخيالات الشعرية المألوفة عند كافة الشعراء من مجاز وتشبيه واستعارة ، يؤلف منها صورا جزئية تساعد على تجسيم المعنى وتشخيصه ولكنها لا تنم عن قدرة فى استقصاء الصورة وتحديد أبعادها وتشكيل معالمها ووضعها فى اطار فنى معبر .

ولما كان الغرض الأساسى فى هذه القصيدة هو تصوير روعة الخطب الذى أصاب بلدة دنشواى ، والتعبير عن جسامة هذا الخطب وفداحته مما يعكس وطنية حافظ وغيرته وضيقه بالاحتلال . فلقد كان هذا الغرض كافيا لأن يحمل الشاعر حملا على أن يصور لنا صورة كلية بارزة القسمات بادية السمات يرى فيها القارىء ما أحسه الشاعر ونفذ اليه وجدانه ، ولكن ذلك لم يتحقق فى هذه القصيدة ، وانما أتت صورها باهتة فارغة تعبر عن واقع وتؤرخ لحادث .

---

(١) أصول النقد الادبى ص ٢١١ . أحمد الشايب .

كقوله مثلا يخاطب اللورد فى مرارة :

فى دنشواى وأنت عنا غائب ... لعب القضاء بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد ... وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات ، وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب • الخ

وفى هذه الأبيات تمكن الشاعر من أن يصور لنا هذا المشهد المروع تصويرا لا يخلو من براعة فى تمثل المشهد الرهيب الدامى الذى تمثل لنا جريمه كبرى من الجرائم التى كان يرتكبها المستعمر الغاشم والاحتلال البغيض على مرأى ومسمع من الأهالى المنكوبين •

كما صور لنا مدى صمود أبناء هذا البلد المنكوب لهول المستعمر وجبروته ؛ — وكيف استبسل هؤلاء فى مقاومة العذاب الذى حاق بهم ، وعدوا الموت فى سبيل الدفاع عن الوطن ومحارمه واجبا تمليه عليه وطنيتهم التى استعذبت الموت من أجل حرية الوطن •

ولكن هذا المشهد الدامى لو نفذ اليه خيال محلق لمنحنا صورة أقوى وتصوير أكثر افتنانا وذلك كما فعل شوقى فى قصيدته عن « دنشواى »[1] فى الغرض نفسه اذ يقول :

---

(١) الشوقيات •

يادنشواى على رباك ســـــلام | ذهبت بأنس ربوعك الأيـــــام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقــوا | هيهات الشمل الشتيت نظـــام
مرت عليهم فى اللحود أهلـــــة | ومضى عليهم فى القيــود العام
كيف الارامل فيك بعد رجالهـــا | وبأى حال أصبح الأيتـــــــام
عشرون بيتا أقفرت وانتابهـــا | بعد البشاشة وحشة وظــــــلام
ياليت شعرى فى البروج حمائــم | أم فى البروج منية وحمــام ؟
«نيرون»لو أدركت عهد «كرومر» | لعرفت كيف تنفذ الأحكـــــام
نوحى حمائم دنشواى وروعــى | شعبا بوادى النيل ليس ينـام
ان نامت الاحياء حالت بينــه | سحرا وبين فراشه الاحــــلام
متوجع يتمثل اليوم الـــــــذى | ضجت لشدة هوله الأقـــدام
السوط يعمل والمشــانق أربــع | متوحدات والجنــود قيــــام
والمستشار الى الفظائــع ناظــرا | تدمى جلود حولـه وعظـــــام
فى كل ناحيــة وكل محلـــــة | جزعا من الملا الأسيف زحــام
وعلى وجوه الثاكلين كآبـــــة | وعلى وجوه الثاكلات رغـــام

فلقد برع شوقى براعة فائقة فى تصوير هذه المأساة تصويــرا صادقا ينبض بالألم والمرارة ، وأمضه ما أصاب دنشواى من هــول مروع وحكم جائر قضى بالموت على فريق من أهلها وقضى بالسجن على فريق آخر ، فأقفرت به بيوت بلغت العشرين وانتابتها الوحشـــة وخيم عليها الظلام بعد البشاشة والأنس •

كما صور شوقى فى هذه الأبيات غضبه الثائر على اللورد كرومر الذى فاق نيرون فى طغيانه وظلمه وقسوته ، وصب جام غضبه على المستشار بوند الانجليزى الذى كان من قضاة محكمة دنشواى ، والذى

وقف يشهد العذاب الذى قضى به على المتهمين من أهل القرية الحزينة التى أحزنت مصر كلها وأحالت شعبها الى رجال ثاكلين ونساء ثاكلات .

ولقد عقب بعض أساتذتنا على أبيات شوقى هذه بكلام جاء فيه « ولست أجد أبلغ فى تمثل هذه المأساة المروعة لمصر كلها ، ولا أدق فى تصوير الحزن الذى أصاب المصريين كافة ، فأقض مضاجعهم وحرمهم النوم من هذا البيت الباكى الحزين .

نوحى حمائم دنشواى وروعى   شعبا بوادى النيل ليس ينام[1]

ومهما يكن فاننا لا نلزم حافظا بأن يتجاوز طاقته فى التخيل وقدرته على التصوير ، كما لا نلزمه بأن يتخطى استطاعته فى توليد المعنى واستقصائه والبحث عنه ، كما أننا لا نذهب مذهب من رأى أن حافظا ناظم للالفاظ مصفف لها وأن ما جادت به قريحته مهما كثر لا يسلكه فى عداد الشعراء الذين أوتوا حظا من الطبع ونصيبا من الفن .

ولكننا نقول : ان حافظا شاعر من رواد شعرنا الحديث نبض حسه بما كان يجيش فى أعماق مجتمعه ، وراح يترجم عن وجدان الشعب وطموحه وآلامه وآماله ، ويهدف فى كل مناسبة ويعبر عن كل مشكلة ، وقد استقامت له بعض عناصر الشعر حتى كانت موضع اشادة نقاده ودارسيه — كعنصر الصياغة ، وتدفق العاطفة — وجمحت به بعض العناصر الاخرى — كالمعانى والاخيلة — وحسبه ما قد فعل .

يقول عنه الدكتور شوقى ضيف : « كان حافظ يشعر بما يشعر به شعبه شعورا دقيقا لأن نفسه كانت مصرية خالصة ، واستطاع أن يصوغ هذا الشعر فى لغة متينة جزلة صياغة باهرة ، وبذلك يتبوأ مكانته فى تاريخ شعرنا الحديث » .[2] .

---

(١) التيارات الجديدة فى الشعر العربى الحديث فى مصر ص ١٣٠ د . عبد اللطيف خليف .

(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١١٠ .

* * *

دراسة عن حافظ ابراهيم
١٨٧٠هـ : ١٩٣٢م

- ١ -

ينتمى حافظ ابراهيم الى المدرسة التى رادها البارودى والتى استنبطنا أصولها فيما سبق — وقد كانت هناك بواعث كثيرة قربت بين الشاعرين فى الطريقة وما زالت بهما حتى جمعت بينهما بعد ذلك بجامعة المودة والألفة .

فحافظ قد اختار حياة الجندية كما اختارها البارودى من قبله ، وحافظ كان مفطورا كصاحبه على ايثار الجزالة والاعجاب بالصياغة والفحولة فى العبارة ، وكان كصاحبه أيضا من حزب التمرد والثورة لامن حزب التسليم والاستكانة ، وكان الشيخ حسين المرصفى أستاذ الشاعرين وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام[1] » ، ولا يعنى هذا أن حافظا كان نسخة مكرورة من صاحبه بل كانت هذه البواعث التى قربت بين الرجلين عاملا من العوامل التى جعلت من حافظ شاعرا من أبرز شعراء هذه المدرسة .

ولعل أقوى الروافد التى غذت شاعرية حافظ ما كان يقرؤه من كتب الادب الاولى « كالاغانى » وغيره ، وما كان يحفظه ويدرسه من دواوين القدماء دراسة غير منظمة حيث كان يتنقل فى مطالعاته من فن الى فن ليرضى ذوقه فى أوقات فراغه ، حتى اذا عثر على أسلوب رشيق او معنى دقيق اختزنه فى نفسه — كما يقول مترجمه فى صدر ديوانه[2] .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢ .

(٢) مقدمة ديوان حافظ ابراهيم — للاستاذ / أحمد أمين — مطبعة القاهرة ١٩٣٧ .

على أن هناك عوامل أخرى قد أسهمت فى التكوين الأدبى لحافظ، وكانت له رافدا أعانه على التبريز فى بعض أغراض الشعر التى بذ فيها كثيرا من شعراء عصره فى مرحلة من مراحل حياته الفنية •

منها : غشيانه مجالس العلماء والمصلحين وقادة الرأى فى الأمـة ، فلقد اتصل بالامام محمد عبده ، وحضر بعض دروسه التى كان يلقيهـا على نخبة من الفضلاء فى منزله — بعين شمس — وصاحبه فى مجالسه وأسفاره كما ارتاد مجالس أمثال : سعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل، ونحوهم من الزعماء الوطنيين والمصلحين ، وكان يؤم مجـالس الأدباء — فى منتدياتهم — كمطران والبشرى وامام العبد وغيرهم ، وكانت هذه المجالس تجمع بين الأدب والفكاهة والنادرة[٣] •

وقد ألم حافظ بالفرنسية واطلع على شىء من آدابها وترجـم البؤساء لفيكتور هوجو ، وان لم يؤثر ذلك فى شعره كما ينبغى ، فهـو وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين فى قراءة الآداب الأوروبية ، فلا تجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحدا أشبه منه بمن يجهلونها ولا تجد بين جاهليها أحدا أشبه منه بمن يعرفونها » كمـا يقول العقاد عنه [٤] •

هذا الى أن حافظا قد فطر على الشعور بالأسى والألم منذ صـدر حياته ، مما جعله ينغمس فى طبقات الناس ويتعرف على مآسيهم ويعايش مشكلاتهم وقضاياهم ، ويستمد من هذه العوامل كلها موضوعات شعره وتجاربه •

---

(٣) راجع : فلاسفة وصعاليك لمحمد فهمى عبد اللطيف •

(٤) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٦ ، ١٧ •

وقد برع حافظ في تصوير عواطف المجتمع ووجدان الأمة ، وآلام الشعب ومآسيه براعته فى تصويره احساسه بالألم وشكوى الزمان التى لازمته منذ وقت مبكر من حياته ، حتى قدمه الدكتور طه حسين على شوقى فى هذه الأغراض • على الرغم من غزارة ثقافة شوقى وتعدد روافدها(٥) •

كما كان العقاد منصفا حين جعل ــ حافظا ــ وسطا بين شعراء الحرية القومية وشعراء الحرية الشخصية ، حيث لم يهمل الناحيتين ولم يبلغ فى احداهما مبلغ الكمال ، فهو شاعر الحياة القومية فى كلامه عن اللغة الفصحى وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواى وعن أزمات المال والسياسة وعن مضاربات الأغنياء فى سوق القطن واضرار الشركات بالبلاد •

ثم هو شاعر الحياة الشخصية فى شكواه وهزله وخمرياته ومساجلاته • وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه • فليس له فى أبناء جيله نظير فى الجمع بين الخصلتين والظهور بحالة قومه وحالة نفسه معا على صفحات ديوانه »(٦) •

ومكانة حافظ فى شعرنا المعاصر ، فيما نرى ــ تكمن فى أنه أودع فى كثير من أغراض شعره ــ مشاعر أمته وقضايا وطنه ومشكلات مجتمعه ــ كما صور فيه ماجاش فى نفسه من مآس وآلام ورثها عن بيئته ، لا سيما فى المرحلة التى كان يحيا فيها طليقا لم تغله قيود الوظيفة(٧) •

---

(٥) حافظ وشوقى ص ١٩١ ، ١٩٢ •

(٦) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٦ •

(٧) كانت هذه الفترة ما بين ١٩١١ ــ ١٩٣٢م ــ أى فى المرحلة الاخيرة من حياته •

أما في مرحلة توظفه فقد كان مضطرا لأن يلتزم ، وأن يمالىء أو يدارى • ومن ثم حمل شعره ما لم تحمله مشاعره وما لم ينبع من أعماقه ، فخلا شعره فى هذه الآونة من روعة الفن وجمال الشعر وافتقد كثيرا من عناصر الشعر التى تضمن له البقاء والخلود فى دنيا الفن المعتد به •

وقد جر عليه ذلك من وابل النقد ما جعل بعض الدارسين يرمص شعره ويقلل من قيمته ويسمه بالنظم الذى لا غناء فيه [٨] •

وثمة ميزة أخرى تتعلق بسمت شعر حافظ هى أنه د أسهم بـه فى تأصيل المدرسة الشعرية التى رادها البارودى ـ صياغة وأسلوبا وبناء ـ تلك التى خلصت الشعر مما كان يتردى فيه من ركاكة وابتذال وصنعة •

ويكاد النقاد يجمعون على أن حافظا لم يجدد فى أساليب الشعر وصوره وأخيلته وموسيقاه ، وما اليها ، ولكن تجديده ينحصر فى الأعراض التى أملتها أحداث العصر ، كشعر السياسة والوطنية والاجتماع •

يقول أحمد أمين : « لم يجدد حافظ فى بحور الشعر وأوزانه ، ولم يجدد فى أسلوبه وبيانه ولا تفكيره وخياله ، انما جدد فى شىء هو فوق ذلك كله جدد فى موضوعه وأغراضه »[٩] ، ويقول :

« ميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت فى شعره آمال أمته أولا وآمال الشعب العربى ثانيا » [١٠] •

---

(٨) ممن ذهب الى هذا الدكتور عبد الرحمن عثمان فى كتابه فى الأدب المعاصر فى الفصل الذى كتبه عن حافظ •

(٩) مقدمة ديوان حافظ ص ٢٧ •

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٧ •

ويقول الدكتور شوقي ضيف : « كان حافظ مجددا فى شـــعره بالمقدار الذى يستطيعه وهو تجديد يستجيب فيه لبيئته وعصره ، أمــا الآداب الأجنبية فلم تسعفه معرفته لها بغــذاء عقلــى أو روحــى جديد » (١١) .

— ٢ —

ومن شعر حافظ الذى تتمثل فيه تلك الخصائص التى أوجزنا فيهــا القول آنفا نسوق الى القارىء هذه النماذج :

١ ــ قال حافظ فى رثاء الامام الشيخ محمد عبده(١٢) :

سلام على الاسلام بعد محمـــد سلام على أيــامه النضرات

على الدين والدنيا على العلم والحجـــــــا
على البـــــر والتقـــوى على الحســـــنات

لقد كنت أخشىء عــادى المـوت قبــــله
فأصبحـــــت أخشـــــى أن تطـول حياتى

فوالهفـــــــى والقبــر بينــــــى وبينـــه
على نظـرة من تلـــكم النظـــــــــرات

وقفت عليـــــه حاسر الرأس خاشـــــعا
كأنـــــــى حيـــــال القبر فى عرفـــات

لقد جهلوا قـدر الامــــام فأودعـــــوا
تجـــاليده فى موحش بفـــــــــــلاة

---

(١١) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٩١ .

(١٢) ديوانه ٢ / ١٤٤ .

ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رمات

تباركت هذا الدين دين محمد أيترك فى الدنيا بغير حماة ؟

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناه الدين للغمزات

زرعت لنا زرعا فأخرج شطاه ونبت ولما نجتن التمرات.. الخ

٢ — وقال فى مظاهرة نسائية قامت بها السيدات فى الثورة(١٣) الوطنية فى سنه ١٩١٩ م :

خرج الغوانى يحتجـ ـن ورحت أرقب جمعهنه

فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنة

وأخذن يجتزن الطريـ ـق ودار سعد قصدهنه

يمشين فى كنف الوقا ر وقد أبن شعورهنه

واذ بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنه

واذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه

واذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسنة

والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه

والورد والريحان فى ذاك النهار سلاحهنه

فتطاحن الجيشان سا عات تشيب لها الأجنه

فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن منه

ثم انهزمن مشتتا ت الشمل نحو قصورهنه

(١٣) ديوانه ٢ / ٨٧ .

فليهنـأ الجيش الفخـو ر بنصره وبكسـرهنه .. الخ

٣ ــ وله فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة المصرية[١] وهى من شعره الاجتماعى قوله من قصيدة طويلة :

يامصر هل بعـد هذا اليأس متسـع
يجـرى الرجـاء به فى كل مضطـرب

لا نحن موتى ولا الأحيـاء تشـبهنا
كأننـا فيـك لم نشـهد ولم نغب

نبكى على بلد سـال النضـار بـه
للوافـدين وأهلـوه على سـغب

متى تراه وقـد باتـت خـزائنه
كـنزا من العلم لا كـنزا من الذهب

هـذا هـو العمـل المبرور فاكتتبوا
بالمـال انا اكتتبنـا فيـه بالأدب

٤ ــ ومن اجتماعياته قوله ينتقد المجتمع المصرى ــ على عهده ــ من قصيدة[٢] قالها فى زواج الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » نقتطف منها هـذه الأبيات :

حطمت اليراع فـلا تعجبى   وعفت البيـان فـلا تعتبى

فما أنت يامصر دار الأديب   ولا أنت بالبلـد الطيب

---

(١) ديوان حافظ /٢٦٥ وما بعدها .
(٢) ديوانه ٢٥٦/١ وما بعدها .

وكم فتيك يامصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (أبو الدليب)
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأغرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو الى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطيب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب
فيا أمة ضاق عن وصفها جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبى
على الشرق منى سلام الودود وان طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصبا بجدب الزمان فأجدب فى الزمن المخصب

* * *

٤ ـ من قصيدة « أيها النيل » (*) لشوقى

قال أمير الشعراء :

١ ـ من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كف فى المدائن تغدق ؟

٢ ـ ومن السماء نزلت أم فجرت من
عليا الجنان جداولا تترقرق ؟

٣ ـ وبأى عين أم بأية مزنة
أم أى طوفان تفيض وتفهق ؟

٤ ـ وبأى نول أنت ناسج بردة
للضفتين جديدها لا يخلق ؟

٥ ـ تسود ديباجا اذا فارقتها
فاذا حضرت اخضوضر الاستبرق

٦ ـ فى كل آونة تبدل صبغة
عجبا وأنت الصابغ المتأنق

٧ ـ أتت الدهور عليك مهدك مترع
وحياضك الشرق الشهية دفق

(*) الشوقيات ٢/٦٥ وما بعدها ـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

(٣) تفهق : فهق الاناء امتلأ حتى كاد يتصبب ، والمزنة فى البيت هنا معناها : السحابة الممطرة .

(٤) النول : خشبه الحائك ينسج عليها ، يخلق : يبلى .

(٥) الاستبرق : الحرير .

(٧) مترع : ممتلىء ، الشرق : الغرقى .

٨ ـ تسقى وتطعم لا اناؤك ضـــائق
بالواردين ولا خـــوانك ينفـــق

٩ ـ والمـاء تسكبه فيسبك عســجدا
والأرض تغرقهـــا فيحيـــا المغـــرق

١٠ ـ تعيى منابعك العقـول ، ويستوى
متخبط فى علمهـــــــا ومحقـــق

١١ ـ أين الفراعنة الألى استذرى بهم
(عيسى) و (يوسف) و (الكليم) المصعق ؟

١٢ ـ الموردون النـاس منهل حكمـــة
أفضى اليـــه الأنبيـــاء ليســـتقوا

١٣ ـ الرافعـــون الى الضحى آباءهم
فالشمس أصـــلهم الوضىء المعـــرق

١٤ ـ وكأنما بـــين البـــلى وقبـــورهم
عهـــد على أن لا مســـاس وموثق

١٥ ـ فحجابهم تحت الثرى من هيبـــة
كحجابهم فـــوق الثرى لا يخـــرق

١٦ ـ بلغوا الحقيقـــة من حيـاة علمها
حجب مكثفـــــة وسر مغلــــــق

---

(٨) ينفق : يفنى ويقل •
(٩) العسجد . الذهب •
(١١) استذرى بفلان : التجأ اليه واستذرى بالشجرة : استظل بها •
(١٢) المنهل : المورد •
(١٣) المعرق : العريق فى النسب •

١٧ ـ وتبينوا معنى الوجود فلم يروا
دون الخلــــود ســــعادة تتحقق

١٨ ـ يبنــون للدنيــا كمــا تبنى لهم
خـــربا غــــراب البين فيهـــا ينعق

١٩ ـ فقصــــورهم كوخ وبيت بداوة
وقبـــورهم صرح أشـــم وجوسق

٢٠ ـ رفعوا لهــا من جنــدل وصفائح
عمــــدا فكانت حائطـــا لا ينتق

٢١ ـ ولمن هياكل قد علا البانى بهــا
بـــين الثــــريا والثرى تتنســق ؟

٢٢ ـ منها المشـــيد كالبروج وبعضها
كالطـــــود مضطجع « أشــم منطق »

٢٣ ـ جـــدد كأول عهـــدها وحيالها
تتقـــادم الأرض الفضـــــاء وتعتق

٢٤ ـ من كل ثقــل كاهل الدنيــا به
تعب ، ووجــه الأرض عنــه ضـيق

٢٥ ـ عال على باع البلى لا يهتــدى
ما يعتــــلى منــــه وما يتســـلق

---

(١٩) الجوسق : القصر .

(٢٠) ينتق : يزعزع .

(٢١) تتسق : تنتظم .

(٢٢) منطق : مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه .

(٢٣) تعتق : من عتق الشيء قدم .

٢٦ ــ متمكن كالطود أصلا فى الثرى
والفرع فى حرم السماء محلق

٢٧ ــ هى من بناء الظلم الا أنه
يبيض وجه الظلم منه ويشرق

٢٨ ــ لم يرهق الأمم الملوك بمثلها
فخرا لهم يبقى وذكرا يعبق

٢٩ ــ فتنت بشطيك العباد فلم يزل
قاص يحجهما ودان يرمق

٣٠ ــ وتضوعت مسك الدهور كأنما
فى كل ناحية بخور يحرق

٣١ ــ كم موكب تتخايل الدنيا به
يجلى كما تجلى النجوم وينسق !

٣٢ ــ (فرعون) فيه من الكتائب مقبل
كالسحب قرن الشمس منها مفتق

٣٣ ــ تعنو لعزته الوجوه ووجهه
للشمس فى الآفاق عان مطرق

٣٤ ــ آبت من السفر البعيد جنوده
وأتته بالفتح السعيد الفيلق

---

(٣٢) مفتق : من فتق قرن الشمس أصاب فتقا من السحاب نبدا منه .

(٣٤) الفيلق : الكتيبة العظيمة .

٣٥ ـ ومثنى الملوك مصفدين خدودهم
نعل لفرعون العظيم وغرق

٣٦ ـ مملوكة أعناقهم ليمينه
يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

٣٧ ـ ونجيبة بين الطفولة والصبا
عذراء تشربها القلوب وتعشق

٣٨ ـ كان الزفاف اليك غاية حظها
والحظ ان بلغ النهاية موبق

٣٩ ـ لاقيت أعراسا ولاقت مأتما
كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق

٤٠ ـ في كل عام درة تلقى بلا
ثمن اليك وحرة لا تصدق

٤١ ـ حول تسائل فيه كل نجيبة
سبقت اليك متى يحول فتلحق ؟

٤٢ ـ والمجد عند الغانيات رغيبة
يبغى كما يبغى الجمال ويعشق

٤٣ ـ ان زوجوك بهن فهي عقيدة
ومن العقائد ما يلب ويحمق

---

(٣٥) النمرق : الوسادة الصغيرة .

(٣٨) موبق : مهلك .

(٤٠) تصدق : من أصدق الرجل المرأة أى سمى لها صداقها .

(٤٣) يلب : صار لبيبا .

٤٤ ـ ما أجمل الايمان ! لولا ضلة
في كل دين بالهداية تلصق

٤٥ ـ زفت الى ملك الملوك يحثها
دين ويدفعها هوى وتشوق

٤٦ ـ واربما حسدت عليك مكانها
ترب تمسح بالعروس وتحدق

٤٧ ـ مجلوة في الفلك يحدو فلكها
بالشاطئين مزغرد ومصفق

٤٨ ـ في مهرجان هزت الدنيا به
أعطافها واختال فيه المشرق

٤٩ ـ فرعون تحت لوائه وبناته
يجري بهن على السفين الزورق

٥٠ ـ حتى اذا بلغت مواكبها المدى
وجرى لغايته القضاء الأسبق

٥١ ـ وكسا سماء المهرجان جلالة
سيف المنية وهو صلت يبرق

٥٢ ـ وتلفتت في اليم كل سفينة
وانثال بالوادي الجموع وحدقوا

٥٣ ـ ألقت اليك بنفسها ونفيسها
وأتتك شيقة حواها شيق

---

(٥١) الصلت : السيف الصقيل الماضي .
(٥٢) انثال : انصب .

٥٤ ـ خلعت عليـك حيـاءها وحياتهـا
أأعــز من هــذين شيء ينفق ؟

٥٥ ـ واذا تناهى الحب واتفق الفـدى
فالروح فى باب الضحيـــة أليق

٥٦ ـ أصل الحضـارة في صعيدك ثابت
ونباتهـا حسن عليــك مخلـق

٥٧ ـ ولدت ، فكنت المهد ، ثم ترعرعت
فأظلهـا منـك الحفى المشـــفق

٥٨ ـ ملأت ديارك حكمـــة ، مأثورها
فى الصـخر والبردى الكـريم منبق

٥٩ ـ وبنت بيوت العـلم باذخة الذرى
يســعى لهـن مغـــرب ومشرق

٦٠ ـ واستحدثت دينــا فكـان فضــائلا
وبنــاء أخــلاق يطـول ويشـهق

٦١ ـ مهـد السبيل لكل دين بعـــده
كالمســك رياه بأخـــرى تفتق

٦٢ ـ يدعـو الى بر ويرفع صـالحا
ويعاف ما هــو للمروءة مخلـق

(٥٦) مخلق : متطيب .
(٥٨) منبق : مسطر .
(٦٠) يشهق من شهق الجبل أى : ارتفع .
(٦١) تفتق : من فتق المسك بغيره : اســتخرج رائحته بشيء يدخله عليــه .

حــول القصــيدة :

- ١ -

الأفكــار والمعــانى :

قصيدة أيها النيل هــذه قصيدة طويلة بلغ عــدد أبياتها ثلاثة وخمسين ومائه بيت (١٥٣ بيتا) أهداها شوقى الى الأستاذ/مرجليوت مدرس اللغــة العربية فى جامعة أكسفورد وقدم لها بمقدمة جاء فيها :

« أيها الأستاذ الكريم : تذكرت « أثينا » مدينة الحكمة فى الدهور الخالية ، وأياما غنمناها على رسومها العافية ، وأطلالها البالية ، فكأنى أنظر الى المؤتمر ، علماؤه الهالة وأنت القمر ، أو زمر الحجيج وأنت الزمر ، وأرى الملوك ذى الحفر ، بنيانهم مصدوع الجدر ، وبيانهم نور البتسر ، نزلنا بهم فاذا الدول خبر ، واذا الممالك أثر ، والطول شــغل الفؤاد والبصر ••••• الى أن قال :

الشعر كالأحلام تدخل على المسرور الكرى • وتكثر على المحزون فى السرى •

وقريحة الشــاعر كعين صاحب الأيام ، عنــدها للحزن عبرة ، وللسرور عبرة •

وهذه ــ أيها الأستاذ الكريم ــ كلمــة قيلت والهموم ســارية والأقدار بالمحاوف جارية ، والدموع متبارية ، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية ، نت منها تغنيا بمحاسن الماضى ، وتقييدا لمآثر الآباء ، وقضاء لحق « النيل » الأسعد الأمجد • ونسبتها اليك عرفانا لفضلك على لغة العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة فى احياء علومها ونشر آدابها ، والقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب ، دروسا نافعة على أنبل

شباب العصر فى أعظم جامعات العالم ، فلعلها تقع اليك : فنتذاكر على النوى تلك الأيام ، ونتنادم من بعـد على بساط الأدب والكـلام ، ونسأل الله أن يحقن الدماء ويقيم جدار السلام »[1] .

ويستبين من هـذه المقدمة التى مهد بها شوقى لقصيدته هـذه الباعث الأساسى على نظمها وهو :

١ ــ الاشاده بمحاسن المـاضى من تاريخ أمته ، ذلك التاريخ الذى سجل أمجاد مصر والمصريين منذ العصور الخوالى ، والذى يشهد على تفوق المصريين فى الحضارة الضاربة جذورها فى أعماق التاريخ .

٢ ــ التغنى بمآثر الآباء التى تمثلت فيما خلفوه للعالم من فن وفكر وثقافة ، وقد بدا ذلك واضحا فى آثارهم الخالدة الرائعة التى تدل على نبوغهم وتفوقهم منذ القدم .

٣ ــ ثناء حق « النيل » ، ذلك النهر الخالد الذى نمت الحياة وترعرعت فى واديه ووفاء الشاعر غير المحدود له ، حيث أشاد بآثاره ونوه بالحضارة التى كان النيل عاملا عليها ونافخا فيها من روحه حتى استقرت حياتها وازدهرت فى ظلاله وبين أودتيه .

وتعالج قصيدة « النيل » مجموعة من الأفكار التى نبعت من أعماق شوقى ، والتى تدل على تأصل روح الوطنية فيه ، وتبين مدى اعتزاز أمير الشـعراء بوطنه وحضارته وآثاره .

ويمكننا أن نبرز هـذه الأفكار على هـذا النحو :

أولا ــ بدأ شوقى قصيدته بالحديث الى النيل ، ومخاطبته خطابا يدل على اعجاب شوقى بتدفق النيل وعطـائه ، متسائلا فى دهشـة واعجاب ــ هل نزلت من السـماء ماؤك فأحييت موات الأرض وبعثت

---

(١) الشوقيات ٢/٦٤ ، ٦٥ .

فيها الحياة ؟ ! أم فجرت من الجنان العالية فترقرقت جداولك وانسابت مياهك وتدفق نميرك !!

وهكذا يمضى شوقى فى هـذا التصوير البيانى المعبر عن عظمة النيل وآثره وتأثيره .

يقـــول :

من أى عهـــد فى القرى تتدفق ؟
وبأى كف فى المـــدائن تغـــدق ؟

ومن السـماء نزلت أم فجرت من
عليــا الجنــان جــداولا تترقرق ؟

وبأى عـــين أم بأيـــة مـــزنة
أم أى طوفان تفيض وتفهق .. الخ .

ويمضى شوقى فى حديثه عن النيل ومخاطبته اياه ، فيصور آثره فى حياة الناس وتأثيره فى الأرض بما ينبت فيها من زرع وما يحيا عليها من كائنات على مر العصور دون أن يجف ماؤه أو يقل عطاؤه ..

وقد تناول شوقى هـذه الفكرة فى أبيات طويلة من قصيدته اكتفينا منها بعشرة أبيات هنا . وتدور كلها حول هذه المعانى التى أوجزنا فيها القول آنفـا .

ثانيا ــ انتقل شوقى الى الحديث عن فكرة ثانية وثيقة الارتباط بالفكرة الأولى ، فالنيل بمائه الوفير وواديه الحى قد استقر على أرضه فراعنة مصر الذين بسطوا نفوذهم على هـذه الأرض وراحوا يشيدون فيها بناءهم ويبنون فيها حضارتهم ، حتى التجأ الى هـذه الأرض الآمنة المستقرة بعض من أنبياء الله ورسله ، بفضل ما أنعم الله عليها من حضارة وما أفاء على ربوعها من بر وخير .

وهؤلاء الفراعنة قد أوتوا مناهل الحكمة التى أفضى اليها الأنبياء ليستقوا منها ، وهم ذوو أصول عالية وأنساب عريقة ، لا تبلى قبورهم اذا دفنوا فى الثرى ، لأن هـذه القبور مهيبة تحتضن جسوم قوم ذوى هيبة ووقار ، كما كانوا فى حياتهم كذلك ، وهم قد عرفوا الحكمة وبلغوا الحقيقة وتبينوا معنى الوجود فلم يروا دون الخلود سـعادة يمكن أن تتحقق ، ولذا آمنوا بأن الدنيا زائلة وأن الوجود الحقيقى يتمثل فى الخلود بعد هـذه الحياة الفانية ، ومن ثم كانت قصورهم التى ابتنوها لأنفسهم فى هـذه الدنيا عبارة عن أكواخ متواضعة وبيوت بداوة لا فن فيها ولا عناية بها .

أما قبورهم فلقد شيدوها صروحا شما وقصورا عظيمة ورفعوا لها من الجنادل والصفائح وأنفقوا فيها من الفن والعلم ما ينهض أن يكون دليـلا قويا على تفوقهم فى البنـاء والمعمار والنحت والنقش والرسم على مر العصور .

ولقد عالج شوقى هـذه الفكرة فى أبيات منها قوله :

أين الفراعنـة الألى استذرى بهم
(عيسى) و (يوسف) و (الكليم) المصعق

الموردون النـاس منهل حكمـة
أفضى اليـه الأنبيـاء ليستقوا

حتى قوله :

فقصورهم كوخ وبيت بداوة   وقبورهم صرح أشم وجوسق
رفعوا لها من جندل وصفائح   عمدا فكانت حائطا لا ينفق

ــ وهى الأبيات من الحادى عشر الى العشرين ــ من جملة الأبيات المختارة من القصـيدة ــ .

ثالثا ــ الوقوف على الآثار التى شيدها المصريون وسمكوا بناءها حتى شارفت النجوم ، وهــذه الآثار بعضها كالبروج العالية المشيدة ، وبعضها كالجبال الشم الراسخة ، وهى جديدة كلها كأنها بنيت اليوم ، لم ينل منها تقادم العهد •

ويصور شوقى عظمة تلك الآثار وضخامتها بأن الأرض تنوء بحملها ويكاد فضاؤها لا يسعها ؛ كما يصور عزتها وتأبيها على البلى بأنه عاجز عن تسلقها والصعود اليها ليهدمها • وذلك فى الأبيات التى تبدأ بقوله :

ولمن هياكل قد علا البانى بهــا	بــين الثريا والثرى تتنسـق
منها المشيد كالبروج وبعضها	كالطود مضطجع أشم منطق
جدد كأول عهــدها وحيالها	تتقادم الأرض الفضاء وتعتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به	تعب ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى	ما يعتلى منه وما يتسـلق
متمكن كالطود أصــلا فى الثرى	والفرع فى حرم الســماء محلق

ثم يمضى شوقى فى اتمام هــذه الفكرة فيذكر أن هــذه الأبنية المتينة من بناء الظلم لأن الفراعنة أثقلوا كواهل البنائين بهذا العمل الشاق المضنى ، بيد أن هــذا البناء العملاق الذى هو فخار كل مصرى ورمز لحضارة مصر وتحضرها منذ القدم ، يبيض منه وجه ظلم هؤلاء الفراعنة ويشرق ؛ لأن قيمته خالدة وتاريخه وضىء أصيل •

وقد صور شوقى هــذه الفكرة فى الأبيات من الحادى والعشرين حتى الثامن والعشرين من الأبيات المختارة ، وفى البيتين (التاسع والعشرين والثلاثين) حديث عن النيل ، وكيف فتن العبــاد بشاطئيه وما ضما ، سواء فى ذلك القاصى الذى قصد النيل للتعرف عليه والتملى بخيراته ، والدانى الذى يرمق هذين الشاطئين باعجاب ويرنو اليهما

في سرور وغبطة • وقد فاح شذى النيل على مر الدهور في كل ناحية وتضوعت به الأرض وضمخ به الجو وانتشر ريحه الطيب في كل حدب ، كأنه بخور يحرق وتفوح منه أريج معطر •

رابعا — عرض شوقي لتاريخ النيل وما كان يجرى على واديه من أحداث ، عرضا ينم عن ثقافة شوقي وهضمه واستيعابه لهذا التاريخ ، ثم استلهامه اياه في تمجيد حضارة مصر والمصريين في شعر خصب أصيل •

فأشاد بموكب فرعون وقد عاد من غزاته منتصرا ، وصور جلال هذا الموكب ورهبته وهيبته ، وقد أقبل فرعون في هذا الموكب ، فتخشع له الأبصار ويخشع بصره للشمس الهته وأصله ، ومن خلف ركبه ملوك أسرى أذلة ان شاء قتلهم وان شاء أعتقهم • وذلك في قوله في الأبيات من الحادى والثلاثين الى السادس والثلاثين :

كم موكب تتخايل الدنيا به   يجلى لما تجلى النجوم وينسق

(فرعون) فيه من الكتائب مقبل   كالسحب قرن الشمس منها مفتق

تعنو لعزته الوجوه ووجهه   للشمس في الآفاق عان مطرق

آبت من السفر البعيد جنوده   وأتته بالفتح السعيد الفيلق

ومشى الملوك مصفدين خدودهم   نعل لفرعون العظيم وعرق

مملوكة أعناقهم ليمينه   يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

ثم صور شوقي في اسهاب عقيدة راجت عند قدماء المصريين هي زفاف النيل كل عام الى عروس عذراء جميلة فاتنة ، كان يعدها للنيل المصريون القدامى ومليكهم ، وكانت هذه العروس ترى أن زفافها الى النيل غاية لا تدانيها غاية ، ومطمح تشرئب اليه الأعناق وتهفو اليه النفوس ، الى درجة أن الغانية كانت تحسد تربها التى نالت هذا

الشرف ، وكان الفتيات يرقبن مرور الحول على واحدة منهن تحظى بهذا الزوج الظافر السعيد ، وكان يدفعها الى هذه الأمنية الحلوة عقيدة تأصلت فى أعماقها وهوى تمكن من نفسها وتشوق الى هذا الشرف الرفيع — فيما حسبن —

وهذا الزواج الذى كان يتمثل فى القاء الفتاة المجلوة الجميلة المزينة فى جوف النيل ، كان يعد له مهرجان ضخم يحضره فرعون وبناته ، وتجرى السفن والزوارق على صفحات النيل ، وتختال فيه المواكب ، وتهب الجموع الحاشدة لمشاهدة هذا العرس الذى تتم مراسمه بأن تلقى هذه النجيبة بنفسها ونفيسها فى النيل مشتاقة هائمة ، وقد خلعت على النيل حياءها وحياتها ، وليس هناك أعز من هذين عند الفتاة العذراء التى تجود بهما على من أحبت وقد عالج شوقى هذا المشهد فى الأبيات من السابع والثلاثين حتى الخامس والخمسين • وبدأها بقوله :

ونجيبة بين الطفولة والصبا	عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف اليك غاية حظها	والحظ ان بلغ النهاية موبق
لاقيت أعراسا ولاقت مأتما	كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق
فى كل عام درة تلقى بلا	ثمن اليك وحرة لا تصدق••الخ•

خامسا : عاود شوقى مخاطبة النيل فذكر أن أصل الحضارة قد استقر فى صعيده ، وأن مولدها كان على أرضه ، وأن النيل كان مهدا لهذه الحضارة منذ ميلادها ، ومستقرا لها فى أطوار نموها وازدهارها ، وعنوان هذه الحضارة ما سطر من حكم على الصخر ونبات البردى التى يعزو أصلها الى قدماء المصريين ، وما شيد من بيوت العلم التى ازدهرت فيها العلوم قديما وتتلمذ عليها علماء الشرق والغرب وأمها طلاب العلم من كل حدب وصوب •

ومن مظاهر هــذه الحضارة الدين الذى استحدثه قدماء المصريين والذى يدعو الى البر ويرفع من صالح الأعمال ، ويعاف ما ينافى المروءة . وذلك الدين المستحدث قد مهد السبيل لكل دين آتى بعده ، حيث أتت تعاليم هذه الأديان فى بعضها غير منافية لتعاليم الدين الذى استحدث فى وادى النيل .

وقد صور شوقى هذه المعانى فى أبياته من : السادس والخمسين حتى الثانى والستين من جملة الأبيات المختارة من القصــيدة والتى يقول فيهــا :

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ... ونباتهــا حسن عليــك مخلق
ولدت فكانت المهــد ثم ترعرعت ... فأظلها منك الحفى المشــفق
ملأت ديارك حكمــة مأثورها ... فى الصخر والبردى الكريم منبق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى ... يســعى لهن مغرب ومشرق
واستحدثت دينا فكان فضائلا ... وبنــاء أخلاق يطول ويشهق
مهد الســبيل لكل دين بعده ... كالمســك رياه بأخرى تفتق
يدعو الى بر ويرفع صالحا ... ويعاف ما هو للمروة مخلق

هذه هى الأفكار الأساسية لمجموعة الأبيات التى اخترناها من قصيدة « النيل » لشوقى . وتحت كل فكرة تندرج طائفة من المعانى التى تحتاج الى روية لتدبرها وفهمها والوقوف عليها ، لأن شوقى قد نوه بالتاريخ القديم لمصر فى ثنايا هذه القصيدة ، ولا يمكن لمن يجهل هذا التاريخ أن يستوعب أبيات القصيدة كما ينبغى ، وهذه المعانى تعكس ثقافة شوقى فى هذا الباب ، حيث قرأ التاريخ القديم لمصر ، وتعمق فهمه ، واستخلص منه المواعظ والعبر ، كما استلهم أحداثه فى كثير من شعره الغنائى والمسرحى ، كقصائده الغنائية ــ أبو الهــول ،

توت عنخ آمون ، الأهرام وغيرها ـ كما فعل فى مسرحيته ـ مصرع كليوباترا وقمبيز [٢] .

ولا أدل على احتفاء شوقى بالتاريخ المصرى القديم والمامه باحداثه واعتزازه بشعره التاريخى من قوله :

وأنا المحتفى بتاريخ مصر   من يصن مجد قومه صان عرضا .

وعلى هذا يمكننا أن نقول : ان المعانى فى القصيدة ليست معانى سطحية أو عامة ، ولكنها معان عميقة خصبة ، ومع هذا العمق وهذه الخصوبة فهى بعيدة عن التكرار المألوف وقد سلمت من الغموض والالتواء والفساد ، ويمكن الوقوف عليها واستبطانها لمن وقع على التاريخ القديم لمصر ـ كما قلنا .

- ٢ -

القيم الفنية فى القصيدة :

لقد توافرت فى قصيدة شوقى هذه عناصر فنية عديدة تسلكها فى عداد الشعر الحى النابض بالحركة والحيوية ، والممتلىء بالجمال والفن .

ومن هذه العناصر :

(أ) العاطفة .
(ب) الخيال الشعرى .
(جـ) الموسيقى الشعرية .
(د) الوحدة الفنية .

---

(٢) راجع كتابنا ـ الآثار المصرية فى شعر شوقى ـ نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٦ .

وسوف نلقى الضوء على كل عنصر من هذه العناصر على حدة فى منهج تحليلى مفيد :

(أ) العـــاطفة :

يمكننا على ضوء دراستنا لهذه القصيدة وغيرها من شعر شوقى الوطنى ، أن نعد أمير الشعراء على رأس قائمة شعراء الوطنية الكبار ، الذين نافحوا عن وطنهم وصوروا مآثره وأمجاده وحضارته ، وهتفوا بحريته ، وهاجموا خصومه •

ولقد كانت وطنية شوقى سببا فى نفيه من مصر — كما كانت سببا فى نفى غيره كذلك من شعراء الوطنية ، وقد أيقنت انجلترا خطورة شعر شوقى فى شحن مشاعر المصريين وتأليبهم عليها ، ومن ثم نفته الى أسبانيا — كما ذكرنا فى الحديث عنه —

وهل أدل على وطنيته من قوله فى بيته الذائع :

وطنـــى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى اليه فى الخلد نفسى؟

وهل أدل على وطنيته كذلك من قصيدته التى نحن بصدد تحليلها ودراستها ، والتى أشاد فيها بالنيل — هبة الله فى أرضه — ونوه فيها بحضارة المصريين وتقدمهم فى البناء والمعمار والعلم والدين ، وفاخر فيها بقوة ملوك مصر القدامى وفراعينهم الذين ذلت لهم رؤوس أعدائهم فى حروبهم الظافرة المنتصرة ، وغير ذلك من المعانى التى عالجها شوقى وعرفنا بها سابقا ! ؟

وهذه المعانى الوطنية لا تنبع الا من وجدان صادق وعاطفة مشبوبة متقدة •

فالعاطفة فى هذه القصيدة صادقة حارة غير متكلفة ، لأنها نبعت من وجدان أحس صادقا بوطنه ، وترجم هذا الاحساس فى شعر صادق قوى مؤثر •

والعاطفة فى هذه القصيدة من نوع العواطف المستمرة التى حافظت على قوتها وحرارتها فلم تفتر ولم تبرد فى أى موطن من مواطن القصيدة — على طولها —

ولقد بدا أثر هذه القوة فى الألفاظ التى عبرت والأخيلة التى صورت ، حيث انتقى الشاعر من تلك وألف من هذه ما يقوى على أن ينقل مشاعره ويترجم احساسه ويصور عاطفته •

ويمكنك أن تتمثل هذا فى أبيات القصيدة كلها — أما نحن فسوف نكتفى بمطالع القصيدة لنستنبط معك ، أثر العاطفة فى انتقاء العبارة وتأليف الصورة الشعرية •

يقول شوقى :

من أى عهد فى القرى تتدفق — وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من — عليا الجنان جداولا تترقرق ؟
وبأى عين أم بأية مزنة — أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة — للضفتين جديدها لا يخلق •

فانظر متأملا تلك الألفاظ التى اختارها شوقى للتعبير عن غزارة النيل ووفرة مياهه • ثم تأمل الأثر الفنى الذى أحدثه التعبير بالفعل المضارع الذى يدل على التجدد والاستمرار ، ثم انظر تلك الألفاظ المنتقاة التى هى من لوازم الماء دون غيره •

— تتدفق — تغدق — فجرت — جداول — تترقرق — عين مزنة — طوفان — تفيض — تفهق •

وقف أمام البيت الرابع وتأمل ما فيه من ألفاظ هى من لوازم الكساء دون غيره •

— نول — ناسج — بردة — جديد — يخلق —

وهكذا كان شوقي بارعا في انتخاب الألفاظ المعبرة عن عاطفته الجياشة المتدفقة .

ثم نقف أمام هذه الصورة الشعرية التي كونها خيال شوقي الخصب والتي تجسد عطاء النيل وتشخص أثره والتي رسمها شوقي على هذا النحــو :

يقول شوقي بعد بيته الســابق :

تســـود ديباجـــــتها اذا فارقتهـــــــا
فاذا حضرت اخضـــو ضر الاســـــــتبرق

في كل آونـــة تبــــــــدل صــــــبغة
عجـــــبا وانت الصــــابغ المتـــــــــانق

فانت أمام صورة فيها نول ينسج بردة جميلة متينة ، واذا فارقها النيل اسودت ، واذا حضر لتزيينها وتجميلها ونقشها صارت حريرا أخضر ، وهكذا يمضي النيل في كل آونة يبدل صبغة بصبغة ويبدل لونا مثل لون آخر شهي صابغ متانق وفنان ماهر .

ولا يخفى اثر عاطفة شوقي الوطنية ووفائه للنيل — سبب الحياة ووسيلتها في مصر — في افتتان الشاعر في هذه الصورة المجسمة للمشاعر المشخصة للحسن الوطني النبيل ، وغير خاف ما تدل عليــه هذه الصورة من أثر النيل في تربة مصر وتنوع زروعها وثمارها بمـا تحمله هذه الزروع والثمار من ألوان مختلفة .

(ب) الخيال الشعري :

افتن شوقي في تأليف الصور الشعرية افتنانا عظيما ، لا سيما في بعض الاغراض الشعرية ومنها ذلك اللون الشعري المعبر عن حضارة مصر ووصف آثارها ، وقد أتيح لأمير الشعراء مالم يتح لغيره من كثير

من الشعراء الذين عاصروه من ثقافة ومشاطدة ورحلة ، هذا الى جانب طبع أصيل وملكة طيعة ، وخيال خصب محلق ، مما جعله قادرا على الافتتان فى تأليف الصور الشعرية المجسمة لمعانى تجربته وأفكارها تجسيما مصورا حيا ، معبرا عن أبعاد التجربة تعبيرا أدبيا مؤثرا •

ولقد أعانه خياله الخصب الذى غذته روافد عديدة — كما ذكرنا سابقا — بمد لا ينضب من التخيل والتصوير ، وسبيله فى ذلك الجمع بين التشابيه والاستعارات والمجازات التى ألفها القدامى وبين مقدرته الفذة فى انتزاع الأطراف التى تبدو متنافرة ، والتأليف بينها فى مهارة تظهر الصورة من خلالها وعليها ملامح الجدة والابتكار يقول ناقد معاصر « كان شوقى يعرف كيف يجسم الصورة وكيف يحشد جزئياتها وعناصرها ، فاذا هى تتحول الى لوحة كبيرة كهذه اللوحات التى نراها فى معارض الرسامين [٣] » •

وقصيدة شوقى التى بين أيدينا مليئة بالصور الشعرية — الجزئية والكلية — تلمسها فى بيت واحد أو فى مجموعة من الأبيات •

ففى مطلع القصيدة :

من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كف فى المدائن تغدق

تطالعك هذه الصورة الجزئية المعبرة عن معناها فى تجسيم •

— تدفق الماء من مكان منحدر ، وهذه تعطيك مدى غزارة ماء النيل فى انسكابه وجريانه وتدفقه •

— كما تطالعك هذه الصورة الجزئية كذلك :

— كف مبسوطة تعطى فى سخاء وغدق • وهذا حال النيل المستفهم عنه من الشاعر فى قوله :

---

(٣) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٤٧ د/شوقى ضيف •

وبأى كف فى المدائن تغدق ؟

والتصوير الذى اشتمل عليه هذا البيت والذى ألفه خيال شوقى الرحب ، أن تدفق النيل فى القرى منذ عهد بعيد ، لأن تاريخ القرى التى قامت على ضفاف النيل وواديه تاريخ قديم ضارب جذوره فى أعماق التاريخ ، كما أن عطاء النيل لا ينفد وغدقه لا ينقطع ، وهذا مثار اعجاب الشاعر فى تساؤله للنيل الذى تخيله شخصا يناجيه ويفضى اليه باعجابه •

وهذه الصورة التى تضمنها البيت تعطيك المعنى مجسما مشخصا وكأنه ماثل أمامك تماما •

ـ ثم تأمل هذه الصورة الكلية القوية التى جسمت عزة المتجبر وشموخه وشممه ، كما شخصت ذل المهزوم المنكسر وخضوعه ، فى هذه الأبيات التى صور فيها شوقى موكب فرعون الحافل المنسوق واشراقه بين الصفوف والكتائب ، كالشمس تسفر فى دجنة السحاب فتخشع لرؤيته الأبصار ، وقد تبعه ملوك أسرى أذلة مصفدين خاضعين لأمر فرعون نازلين على حكمه فيهم •

يقول شـــوقى :

كم مـــوكب تتخـــــــــايل الدنيـــــــــا به
يجـــــلى كما تجـــلى النجــــــــوم وينســـق

(فرعون) فيـــه من الكتــــــائب مقبــــــل
كالشـــحب قـــرن الشـــمس منهـــا مفـــتق

تعنـــــو لعـــــزته الوجــــــــوه ووجهـــــــه
للشـــمس فـــى الآفـــاق عـــان مطــــــــــرق

آبت مـــن الســــــــــفر البعيـــــد جنـــوده
وأتتـــه بالفـــــــــتح الســــعيد الفيــــلق

ومشى الملوك مصفدين خدودهم
نعل لفرعون العظيم وغرق

مملوكة أعناقهم ليمينه
يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

فشوقى فى هذه الأبيات يخايل بموكب فرعون وقد عاد منتصرا من حربه مع أعدائه ، وقد برع شوقى فى تصوير موكب فرعون وما أحيط به من جلال وما حفه من رهبة وهيبة ، ثم تصوير فرعون وقد أقبل فى هذا الموكب ، فتخشع له الأبصار وتعنو لعزته الوجوه ويخشع بصره الشمس مطرقا لالاهته وأصله ، ومن خلف ركبه ملوك أسرى أذلة ، ان شاء قتلهم وان شاء أعتقهم .

ـ ثم انظر مجموعة هذه الصور الجزئية ، التى تألفت منها صورة كلية للمهرجان السنوى الذى كان يقام بمناسبة زفاف عروس النيل اليه كل عام ، وما اتسمت به هذه الصورة من جمال وفن ـ وذلك فى قول شوقى :

مجلوة فى الفلك يحدو فلكها
بالشاطئين مزغرد ومصفق

فى مهرجان هزت الدنيا به
أعطافها واختال فيه المشرق

فرعون تحت لوائه وبناته
يجرى بهن على السفين الزورق

حتى اذا بلغت مواكبها المدى
وجرى القضاء الأسبق

وكسا سماء المهرجان جلالة
سيف المنية وهو صلت يبرق

وتلفتت فى اليم كل سفينة
وانثال بالوادى الجموع وحدقوا

ألقت اليك بنفسها ونفيسها
وأتتك شيقة حواها شيق

خلعت عليك حياءها وحياتها
أعز من هذين شىء ينفق !

— فانظر الى تلك العروس المجلوة التى حواها الفلك فى النيل ، والناس بشاطئيه ما بين مزغرد ومصفق تعبيرا عن البهجة التى هى من لوازم الأعراس .

— وأنظر الى هذا المهرجان الفخم الذى احتشد فيه القوم وطربت له الدنيا واختال فيه المشرق ، وفرعون تحت لواء هذا المهرجان يحتفل مع الناس بهذه المناسبة الجليلة يشاركه بنانه اللائى ركبن الزورق فى النيل وقد جرى بهم على السفن .

— ثم تأمل هذا الجلال الذى يحف بالمهرجان ويكسو سماءه ، وهذه السفن التى تلفتت لتشهد ساعة القاء العروس فى النيل ، وتلك الجموع التى انثالت بالوادى للغرض ذاته ، حتى اذا بلغ هذا كله مداه : قامت العروس المجلوة المحتفل بزفافها بالقاء نفسها فى النيل ، وهى فى شوق وتلهف لأن تضمها أحضانه وأن تحظى برضاه ، وقد خلعت عليه أعز ما تنفقه الفتاة وتخلعه وهو حياؤها وحياتها .

وهذه الصور المتآخية تعطيك صورة كلية لهذا المشهد المثير ، الذى يطالعك فيه اللون والحركة والسكون وغيرها مما يشكل أجزاء الصورة ويجمع بين شتاتها .

وهكذا تطالعك فى القصيدة صور عديدة تدل على خيال شوقى البارع وقدرته على تأليف الصور والتفنن فى رسمها .

وعنصر التصوير الشعرى من العناصر التى تفوق فيها شوقى تفوقا باهرا . وكان موضع اشادة من النقاد المنصفين (٤) أما من اعتسف فى نقد شوقى وتحامل عليه فقد رأى أن صور شوقى كانت صورا لفظية لا رصيد لها من الشعور (٥) ونرى أن صور شوقى فى شعره تستمد قيمتها من أنها توحى بالقيم الشعورية التى تكمن خلف يمها التعبيرية والجمالية .

(ج) الموسيقى الشعرية :

ومن العناصر الشعرية التى برع فيها شوقى فى شعره كله عنصر الموسيقى الشعرية ، وهو عنصر وثيق الارتباط بالصورة الشعرية التى تفوق فيها شوقى — كما ذكرنا سابقا .

فموسيقى شوقى فى شعره موسيقى عذبة رائعة صافية ، برع شوقى فى صياغتها وتأليفها براعة نادرة ، بذ فيها أقرانه ، وتفوق بها على معاصريه .

فلقد انتقى أمير الشعراء من الألفاظ أجملها وقعا وأقواها دلالة وأعذبها جرسا ، وأكثرها تعبيرا عن تأليف اللحن الذى يحرك الشجن ، والنغم الذى يثير كوامن الذكرى .

وقد ساعد شوقى على ذلك حسه الموسيقى الفطرى ، الذى كان يألف الأنغام العذبة ويتذوقها ، ويؤلف بين الألفاظ وينسق الصور ويوائم بينها ، حتى يؤلف لحنا رائعا تطرب له الأسماع وتهتز منه العواطف ، وهذه السمة فى شعر شوقى جلته طيعا للملحين والعنـاء ، فشجا به كبار مشاهير الغناء فى عصرنا هذا .

---

(٤) راجع : شوقى شاعر العصر الحديث د/شوقى ضيف .

(٥) راجع . الديوان للعقاد — فى نقد شوقى —
وراجع : النقد الأدبى لسيد قطب ص ٣١ .

يقول الدكتور شوقى ضيف : « .. ولا أبالغ اذا قلت : اننى لا أستمع الى قصيدة طويلة لشوقى حتى أخال كأننى أستمع حقا الى « سمفونية » فموسيقاه تتضخم فى أذنى وأشعر كأنها تتضاعف ، وكان مجاميع من مهرة العازفين يشتركون فى اخراجها وفى ايقاع نغمماتها ، ولا أرتاب فى أن ذلك يرجع الى ضبطه البارع لآلات ألفاظه وذبذباتها الصوتية . وليست المسألة مسألة حذق أو مهارة فحسب ، بل هى أبعد من ذلك غورا . هى نبوع والهام واحساس عبقرى بالبناء الصوتى للشعر .

وهذه الروعة فى الموسيقى تقترن بحلاوة وعذوبة لا تعرف فى عصرنا لغير شوقى ، وربما كانت تلك آيته الكبرى فى صناعته ، فأنت مهما اختلفت معه فى تقدير شعره -لا تسمعه حتى ترهف له أذنك ، وحتى تشعر كأنما يحدث فيها ثقوبا ، هى ثقوب الصوت الصافى الذى تهدر به المياه بين الصخور ، والصوت يعلو تارة فيشبه زئير البحار تهيج ، وينخفض تارة فيشبه قطرات الفضة التى تسقط من مجاذيف الزوارق وهى تجرى سابحة على صفحات النيل » [٦] .

وجمال الموسيقى الشعرية فى قصيدة ـــ النيل ـــ موضوع دراستنا ـــ نابع من انتقاء ألفاظها بما تحمله كل لفظة من جرس خاص ودلالة صوتية معينة تساير الغرض وتعين على التعبير عنه ، كما تتأتى هذه الموسيقى من جمال الصور الشعرية ومهارة شوقى فى تأليفها ، هذا الى تناسق الشعور والملاءمة بين الأفكار التى تناولتها القصيدة ـــ وهذه هى الموسيقى الداخلية للنص الشعرى . كما أن هناك موسيقى خارجية للقصيدة تمثلت فى وحدة وزنها حيث بنيت القصيدة كلها على وزن البحر الكامل ـــ بما له من جمال موسيقى وايقاع رائع ، وأجزاؤه هى :

متفاعلن / متفـــاعلن / متفاعلن   متفاعلن / متفـــاعلن / متفاعلن

---

(٦) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٤٤ .

وهو من البحور الشعرية التى استعملها العرب كثيرا فى شعرهم لنهوضه بالتعبير عن أغراض شتى • كما تمثلت هذه الموسيقى فى وحدة القافية فى جميع أبياتها • وروى هذه القافيه هو حرف — القاف — المضمومه — كما رأيت — وليست فيها لفظه مجتلبه أو متكلفه أو محشوة — كما رأيت —

وحتى تتمثل جمال هذه الموسيقى نكرر عليك أبياتا من المقطع الأخير من الأبيات المختاره من القصيدة لتقف بنفسك على هذا الجمال فى الصياغة الموسيقية التى صاغها شوقى بفطرته وحسه الموسيقى •

يقـــول شـــوقى :

اصــــل الحضـــــارة فى صـــــعيدك ثابت
ونباتهـــــا حســـن عــليك مخــــــــلق

ولدت فــــــكنت المهــد ثم ترعـــــــرعت
فاظلهـــا منـــــك الحـــــفى المشـــفق

مـــــلأت ديـــارك حكمـــة مأثورهــــا
فى الصـــخر والبـــردى الـــكريم منبــق

وبنت بيــــوت الســـلام باذخــة الذرى
يســــعى لـــــهن مغـــرب ومشـــرق

(د) الوحـــدة الفنيـــة :

فى قصيدة شوقى هذه تبدو الأفكار مرتبة منسجمة ، على الرغم من تعددها جريا على مذهب الشعراء المحافظين فى بناء قصـــائدهم وتآليفها •

وهذه الأفكار التى تعددت فى قصيدة شوقى وثيقة الارتباط قوية الصلة مبرغم أن القصيدة عن « النيل » وجملة وأثره فى الحياة بيد أن شاعرنا قد تزاحمت عليه الخواطر وانثالت عليه المعانى فراح يتحدث

عن تاريخ النيل فى رحلته الطويلة مع الزمن وما صاحب هذه الرحلة من أحداث ، وما أوحى اليه هذا التاريخ الحافل من حضارة ومجد وانتصار وغيرها من الأمجاد الماثلة فى وجدان الشاعر والتى جرت كلها على ضفاف النيل وواديه .

ونحن لا نستطيع ان نقول : ان الوحدة الفنية فى قصيدة شوقى هذه وحدة عضوية ، لعدم انطباق مقاييس تلك الوحدة على هذه القصيدة ، كما فهمها ونادى جمهرة من دعاتها فى النقد الحديث .

كما ان الوحدة هنا ليست وحدة موضوعية . لأن ــ شوقى ــ عالج فى قصيدته هذه أكثر من غرض ــ كما ذكرنا ــ وان كانت هذه الأغراض متآخية يجمعها رباط شعورى قوى .

كما أننا لانذهب مذهب من تحامل على شوقى ورمى قصائده بتفكك أغراضها واضطراب أفكارها بنائها . ولكنا نرى :

أن قصيدة شوقى هذه تميزت بالوحدة الفنية التى تمثلت فى وحدة مشاعر شوقى وأحاسيسه ، وفى وحدة أفكارها وترابطها وانسجامها وتآخيها ، وفى ترابط الصور والعناصر الفنية التى عبرت عن عواطف الشاعر وصورت خلجات نفسه وشعوره وحسه .

ولا يضيرها على الاطلاق أن تتقدم فيها بيتا على بيت أو فكرة على فكرة دون أن ينفرط عقدها أو يتخلخل بناؤها ــ على ما دعا اليه دعاة الوحدة العضوية ــ لأن تحقق هذه الوحدة فى الشعر الغنائى ليس محل اجماع من النقاد ، كما أن اشتراط هذه الوحدة فى الشعر الغنائى دعوة لا تخلو من تحكم أدى اليه احتكام بعض النقاد الى مقاييس أجنبية تغاير فى كثير من مفاهيمها طبيعة شعرنا ومقوماته .

* * *

دراسة عن ــ شوقى ــ ١٨٦٩ : ١٩٣٢

ــ ١ ــ

اذا كان البارودى قد راد جيل الشعراء المحافظين فى العودة بالشعر الى عصور ازدهاره وقوته • فان ــ شوقى ــ قد تمكن من أن يؤصل هذا البناء الذى وضع أساسه البارودى ، بل ويعلى دعائمه ويضيف اليه •

وذلك أن شوقيا كان مطبوعا على الشعر كما كان البارودى ، ولكنه كان أغزر ثقافة وأوفر طبعا بفعل عوامل تكوين شاعريته ومكونات شخصيته الفنية التى وصفها الدكتور طه حسين بقوله : « طبيعة شوقى معقدة ينبئنا شوقى نفسه بتعقيدها ، فيها أثر من العرب ، وأثر من الترك وأثر من اليونان ، وأثر من الشركس ، التقت كل هذه الآثار وما فيها من الطبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقى ، فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة ، وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة أشد ما يكون الخصب غنية كأوسع ما يكون الغنى ، ثم لم تكد هذه النفس الخصبة الغنية المتوقدة تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ، ومن كنوزها وغناها ما يزيدها خصبا وثروة الى ثروة •

كان شوقى يحسن التركية ، وكان متقنا للفرنسية ، قد برع فيها نطقا وفهما ، وكان فى أول أمره كثير القراءة حريصا على الفهم ، فقرأ كثيرا وفهم كثيرا وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم •

وانضم الى هذه العناصر التى كانت تركب طبيعته عنصر جديد هو العنصر الفرنسى الذى عمل فى عقله وخياله ومزاجه كله ، وتمت العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة •

عاشر شوقى العرب فى شعورهم وأدبهم فعظم حظه من العربية ، وعاشر الترك فى حياته اليومية ، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركى فيه .

ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقى قدماء اليونان ، كما عاشر قدماء العرب ، ولو قد فعل لأهدى الى مصر شاعرها الكامل [٦]

وهذا أوفى ما قيل فى ثقافة شوقى الشعرية وروافدها ومكوناتها .

— ٢ —

شعره بين القديم والجديد :

حاكى شوقى وعارض فى عدد غير قليل من قصائده كثيرا من الشعراء العباسيين وغيرهم ممن قرأهم وتأثرهم فى صدر حياته الأدبية ، ولكنه كان عبقريا فى محاكاته ومعارضاته ، فلم يجىء شعره قالبا محرورا أو نسخة معادة — شأن المقلدين الجامدين — وانما طوع صياغتهم وأساليبهم وصورهم المترجمة عن خلجات ذاته ونبضات حسه وقضايا وطنه ومشكلات أمته فجاء شعره جديدا فى مضامينه قويا فى صياغته وأسلوبه جمع فيه بين عذوبة البحترى ورقة ابن زيدون وحكمة المتنبى .

وربما كان شوقى فى مرحلته الفنية الأولى — التى عاش فيها أسير الترف والبذخ فى حاشية الأمير عباس بالقصر — مكبل الفن ، منساقا الى التقاليد فى نطاق أغراض الشعر وأساليبه ، يمدح أو يحاصم ليرضى الأمير ولى نعمته ، الذى حمله كثيرا على مديحه أو مديح من تعلق بهواه من خلفاء العثمانيين .

---

(٦) حافظ وشوقى ص ١٧٣ وانظر فى ترجمة حياته وفنه — مقدمة — الشوقيات د/محمد حسين هيكل وشوقى شاعر العصر الحديث د/شوقى ضيف والأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٩٢ وما بعدها .

ومن ثم بعد شوقي بشعره في هذه المرحلة عن احساس الشعب ومشاعر الوطن وسخر فنه لخدمة السادة وتملق السلاطين ، ولعل هذا اللون من شعره الذى حمله مالم ينفعل به الحس وتجيش به النفس هو الذى جر عليه وابلا من سهام النقد التى صوبها اليه النقاد أو بعضهم — كما سنرى — ولكن فن شوقي لم يستمر على هذا النمط المتملق — ، فلقد كان من حسن حظ الشعر المعاصر أن نفته انجلترا الى أسبانيا ، خوفا من شعره الذى كان يمكن أن يؤلب عليها مشاعر المصريين لو وجهه الى هذا الغرض •

وبهذا وجهت انجلترا شعر شوقي وجهة فنية أخرى من حيث لا تدرى ، ذلك أن الفترة التى مكثها شوقي فى منفاه من ١٩١٥ — ١٩١٩ قد مكنته من الاطلاع على عالم جديد كما أتاحت له الاطلاع على مجد العرب المفقود فى بلاد الأندلس ، وأن يقرأ تاريخ ملوك المسلمين الأقدمين هناك وأن يطالع بنفسه مفاتن الشعر العربى فى الأندلس بألوانه الزاهية وبحوره المغردة وموسيقاه الشجية(٣)

وفى أسبانيا انطلق البلبل المغرد يصدح بأعذب اللحن ويعزف على قيثارة الشعر العربى أرق النغم وأشجاه •

ومنذ ذلك الحين أخذ شوقي ينفض غبار التقليد ويتخلص من قيود المجاملة وانطلق على طريق التجديد يخطو خطوات فسيحة ، وظهرت فى شعره العواطف الاسلامية والوطنية والقومية التى بز فيها كثيرا من شعراء عصره • وانتزع منهم النافذة العريضة التى كانوا يطلون منها على الشعب فى فترة كان ينمرغ فيها هو فى كنف القصر وحاشيته بعيدا عن قضايا وطنه واحساس أمته ، ومنذ ذلك الحين أصبح شوقي شاعر الاسلام والوطنية وموضع اعجاب المنصفين من النقاد — على حد ما عبر به أحدهم قائلا :

---

(٣) بلابل من الشرق ص ٥٢ صالح جودت •

« وقد يكون السبب فى تفضيل كثرتنا لشوقى أنه جمع بين الثقافتين العربية والغربية ، واقتبس من الأخيرة خير ما فيها ، وأنه كان شاعر الوطنية الصادقة والشرق والاسلام ، فهو يعزف على قيثارة شدت لها الأوتار من قلوبنا ، فيعبر خير تعبير عن شعورنا وعما يجيش فى نفوسنا » (٤) .

وحتى لا نطلق القول على عواهنه نسوق بعض نماذج من شعره الاسلامى الوطنى والقومى ، الذى صور فيه عواطفه الجديدة السامية ، المفعمة بالمشاعر الاسلامية والوطنية والقومية .

١ ـ فمن شعره الاسلامى قوله من همزيته الطويلة فى مديح خير الخلق ﷺ :

يامن له عز الشفاعة وحـــــده	وهـــو المنزه ما له شـــــفعاء
عرس القيــامة أنت تحـــت لوائه	والحـــوض أنت حياله الســـقاء
تروى وتســـقى الصالحين ثوابهم	والصالحات ذخـــائر وجـــزاء
ألمثل هذا ذقت فى الدنيا الطوى	وانشـــق من حـــلق عليك رداء ؟
لى فى مديحك يا رســـول عرائس	تيمن فيــك وشـــاقهن جـــلاء
هـــن الحسان فان قبـــلت تكرما	فمهـــورهن شـــفاعة حســـناء
ما جئت بابك مادحـــا بل داعيـــا	ومن المديح تضرع ودعـــاء
أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة	فى مثلها يلقى عليك رجـــاء
أدرى رســـول الله أن نفوسهم	ركبت هواها والقلوب هـــواء
متفككون فما تضم نفوســـهم	ثقة ولا جمـــع القلـــوب صفاء
رقـــدوا وغرهم نعـــيم باطـــل	ونعيم قـــوم فى القيود بـــلاء
قسط الشعوب من الحضارة أنعم	تترى وقســـط المســـلمين شقاء
أورثتهم غـــدر البلاد فضيـــعوا	فاليوم هم فى أرضهم غـــرباء

---

(٤) وميض الأدب بين غيوم السياسة ص ١٦ ابراهيم دسوقى أباظة .

ظلموا شريعتك التى نلنـا بها ما لم ينل فى (رومة) الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها وأهتدى فى الدين والدنيا بها السعداء [٥]

٢ ــ ومن شعره الوطنى قصيدته فى مهاجمة ــ اللورد كرومر ــ الذى كان قد استمرأ الطغيان فى مصر ولوث نهاية مدته بما ارتكبه فى دنشواى من حادث مروع يمثل نقطة سوداء فى صحيفة انجاترا ، وفيها هاجمه شوقى هجوما صارخا ، وصور مشاعر المصريين جميعا ازاء هذا الطاغية [٦] ومنها قوله :

أيامكم أم عهـد اسماعيـلا ... أم أنت فرعون يسوس النيـلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمـره ... لا سائلا أبدا ولا مسـئولا
لما رحلت عن البلاد تشهـدت ... فكأنك الداء العيـاء رحيلا
فرعون قبلك كان أعظم سـطوة ... وأعز بين العـالمين قبيـلا

ومنها قوله :

اليوم أخلفت الوعود حكومـة ... كنا نظن عهودها الانجيـلا
دخلت على حكم الوداد وشرعـه ... مصرا فكانت كالسـلال دخولا
هدمت معالمهـا وهدت ركنهـا ... وأضاعت استقلالها المـأمولا
قالو جلبت لنـا الرفاهية والغنى ... جحـدوا الاله وصنعه والنيـلا

قالوا :

وحياة مصر على زمان محمـد ... ونهوضها من عهـد اسـماعيـلا
فارحل بحفظ الله جـل جـلاله ... مستعفيا ان شئت أو معـزولا

---

(٥) المختار من شعر أمير الشعراء ــ أحمد شوقى ــ ص ٢٣ ــ ٢٤ ، ط ٢ ــ المكتبة المصرية بدون تاريخ .

(٦) أنظر وطنية شوقى ص ١٤٨ وما بعدها د/أحمد الحوفى ، ووميض الأدب بين غيوم السياسة ص ١٧ ، ١٨ .

٣ ــ ومن شعره القومى الذى لم تزل نغمته تدوى فى آذان عشاق الحرية من أبناء العروبة كلها ممن يمجدون الكفاح من أجل الكرامة والاستقلال ــ قصيدته فى نكبة دمشق ــ التى مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافى جلال الرزء عن وصف يدق

ومنها قوله :

وقفتم بين موت أو حياة فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا اذا الأبطال لم يسقوا ويسقوا
ففى القتلى لأجيال حياة وفى الأسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق (٧)

ومن هذا اللون من الشعر يترجم عن عواطف اسلامية ووطنية وقومية قوية . ويعد مظهرا من مظاهر تجديد شوقى فى أغراض الشعر ومضامينه ــ وان ظلت صياغته وصوره وأساليبه على نمط القدامى ــ

وثقافة شوقى التى وعاها ابان دراسته فى فرنسا التى مكث أربع سنوات من ١٨٨٧ ــ ١٨٩١ ــ اطلع خلالها على آداب الفرنسيين وتزود بثقافتهم وشاهد مسارحهم وقرأ أدبهم ، واطلع على روائع ما أنتجه فيكتور هوجو ، ودى موسيله ، ولا فونتين ولا مرتين وغيرهم (٨) .

كان لهذه الثقافة أثر بارع فى تجديد موضوعات شعره ، حيث أدخل فيه أغراضا جديدة ، لم يطرقها شعراء عصره ــ منها نظم القصة والحكاية على لسان الحيوان متأثرا بلافونتين الشاعر الفرنسى وقد والى

---

(٧) الشوقيات ٢/٨٨ ــ ٩١
(٨) الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٩٣.

شوقى الجهد فى هذا الميدان حتى كان خير من حاكى — لافونتين — فى العربية فى جميع خصائصه الفنية كما سجله له النقاد والدارسون فى هذا العصر [٩] .

ومنها كذلك أنه أدخل الشعر الموضوعى فى أدبنا المعاصر ، بعد أن كان شعرا غنائيا فقط ، حيث تمكن من أن يؤلف مسرحية شعرية جيدة السبك رصينة التعبير فيها شىء من أصول الفن المسرحى وعليها طابع الأدب الرفيع شعرا ، وبذلك عد عمله هذا فتحا جديدا فى أدبنا العربى لا سيما وقد توالى انتاجه المسرحى ، وكان فى كل مرة يخطو نحو الكمال الفنى خطوات — على الرغم مما وجه الى مسرحياته من نقد [١٠] .

ويعد شوقى رائد هذا الفن فى أدبنا العربى الحديث بلا منازع ، وان سبقته محاولات متواضعة كانت من خليل اليازجى ومحمد عثمان جلال وأبى خليل القبانى — كما هو مفصل فى موضعه [١١] .



ومهما يكن فان شعر شوقى قد جمع فيه بين القديم والجديد ، فهو فى صياغته وقالبه وصوره وبنائه قديم وان فرض شوقى ذاته عليه وضمنه كثيرا من مبتكراته الفنية وصوره الخصبة وموسيقاه الرائعة العذبة ، التى أعطت شعره مذاقا خاصا ميزه عن شعراء مدرسته .

وهو فى موضوعاته ومضامينه الوطنية والقومية . وبعض أغراضه الأخرى — التى هى وليدة ثقافته الأوربية — جديد ، حيث كان شعره

---

(٩) راجع الأدب المقارن د/محمد غنيمى هلال ط ٣ ص ١٧٩ وما يليها . وانظر نماذج من هذا القصص الشعرى فى ديوانه — الشوقيات —

(١٠)،(١١) راجع : المسرحية نشأتها وتاريخها للأستاذ/ عمر الدسوقى ص ٣١ وما بعدها ط أولى ١٩٥٤ والأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٦٩ وما بعدها د/شوقى ضيف .

صدى لشخصيته وثقافته وأحداث عصره ، وذلك باستثناء ما كان يرفعه من مديح متملق الى الأعتاب الخديوية فى الفترة التى كان فيها مكبل الفن يفرض عليه النظم فى تجارب معينة لم تنفعل بها نفسه ولم تنبع من أعماقه ، وكان فيها التقليد بينا ، وهى وان أسقطناها من ديوانه فان ما بقى من شعره يشهد على نبوغه وعبقريته وأصالته .

وشوقى مجدد حتى فى بعثه واحيائه للقديم ، لأن البعث وسيلة من وسائل التجديد ، بل قد يكون البعث آكد وسائل التجديد ، لأنه يصل ما بين مدنية دارسة ومدنية وليدة يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسلفه — كما يرى الدكتور هيكل فى دراســته عنه التى قدم بها ديوانه[١٢] .

* * *

(١٢) مقدمة الشوقيات للدكتور محمد حسين هيكل جـ ٢ .

قصيدة المساء[1] قالها خليل مطران

ـ وهو عليل فى ـ مكس الاسكندرية ـ

ـ ١ ـ

١ ـ داء ألم : فخلت فيه شفائى
من صبوتى فتضاعفت برحائى

٢ ـ يا الضعيفين ! استبدا بى وما
فى الظلم مثل تحكم الضعفاء

٣ ـ قلب أذابته الصبابة والجوى
وغلالة[2] رثت من الأدواء

٤ ـ والروح بينهما نسيم تنهد
فى حالى التصويب والصعداء

٥ ـ والعقل كالمصباح يغشى نوره
كدرى ويضعفه نضوب دمائى

٦ ـ هذا الذى أبقيته يامنيتى
من أضلعى وحشاشتى وذكائى

٧ ـ عمرين فيك أنسعت لو أنصفتنى
لم يجدرا بتأسفى وبكائى

٨ ـ عمر الفتى الفانى وعمر مخلد
ببيانه ـ لولاك ـ فى الأحياء

---

(١) ديوان الخليل ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .
(٢) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

٩ ـ فغدوت لم أنعم كذى جهل ولم
أغنم كـذى عقـل ضـمان بقاء

١٠ ـ يا كوكبا من يهتـدى بضـيائه
يهـديه طالع ضـلة وريـاء

١١ ـ يا موردا يسـقى الورود سرابه
ظمـأ الى أن يهلـكوا بظمـاء

١٢ ـ يا زهـرة تحيى رواعى حسنها
وتميت ناشـقها بلا ارعاء

١٣ ـ هـذا عتابك غـير أنى مخطىء
أيام سـعد فى هوى حسـناء !

١٤ ـ حاشاك بل كتب الشقاء على الورى
والحب لم يبرح أحب شـقاء

١٥ ـ نعم الضـلالة حيث تؤنس مقلتى
أنـوار تلك الطلعـة الزهـراء

١٦ ـ نعم الشـفاء اذا رويت برشـفة
مكذوبة من وهـم ذاك المـاء

١٧ ـ نعم الحيـاة اذا قضيت بنشقة
من طيب تلك الروضة الغنـاء

* * *

---

(١٢) بلا ارعاء : بلا ابقاء عليه .

١٨ ــ أنى أقمت على التعـــلة بالمنى
في غــــربة قالوا : تكون دوائى

١٩ ــ ان لم يشف هذا الجسم طيب هوائها
أيلطف النيران طيف هـــــواء ؟

٢٠ ــ أو يمسك الحوباء حسن مقامها
هل مسـكة في البعـد للحوباء ؟

٢١ ــ عبث طوافى فى البــــلاد وعلة
فى عــــلة منفــــاى لاســــتشفاء

٢٢ ــ متفـــرد بصـــبابتى متفـــرد
بكـــــآبتى متفـــــرد بعنـــــائى

٢٣ ــ شاك الى البحر اضطراب خواطرى
فيجيبنى برياحــــــه الهـــوجاء

٢٤ ــ ثاو على صخر أصم وليت لى
قلبــــا كهـــذى الصـــخرة الصـــماء

٢٥ ــ ينتابهـــا موج كمـــوج مكارهى
ويفتهـــا كالســـقم فى أعضـــائى

٢٦ ــ والبحر خفاق الجوانب ضائق
كمدا كصـــدرى ســــاعة الامســـاك

---

(٢٠) يمسك الحوباء : يحفظ الروح .

٢٧ ــ تغشى البــرية كدرة وكأنهــا
صــعدت الى عينى من أحشــائى

٢٨ ــ والأفق معتــكر قريح جفنــه
يغضى على الغمـــــرات والأقذاء

٢٩ ــ ياللغــروب وما به من عبرة
للمســـتهام ! وعبرة للرائى !

٣٠ ــ أو ليس نزعا للنهـــار وصرعة
للشمس بين مآتم الأضـــــواء ؟

٣١ ــ أو ليس طمسـا لليقين ومبعثا
للشك بــين غلائل الظلمــــاء ؟

٣٢ ــ أو ليس محــوا للوجود الى مدى
وابــادة لمعـــالم الأشــياء ؟

٣٣ ــ حتى يكون النور تجــديدا لها
ويكون شـــبه البعث عود ذكاء

٣٤ ــ ولقــد ذكرتك والنهــار مودع
والقلب بــين مهــابة ورجـــاء

٣٥ ــ وخواطرى تبــدو تجاه نواظرى
كلمى كدامية الســـــحاب ازائى

---

(٣٣) ذكاء : الشمس .

(٣٥) كلمى : جريحة .

٣٦ ـ والدمع من جفنى يسيل مشعشعا
بسنى الشـــــعاع الغارب المترائى

٣٧ ـ والشمس فى شفق يسيل نضاره
فوق العقيق على ذرى ســـــوداء

٣٨ ـ مرت خــــلال غمامتين تحدرا
وتقطـــرت كالدمعـــة الحمــــراء

٣٩ ـ فكان آخــر دمعة للكون قد
مزجت بآخـــــر أدمعـــى لرثائـــى

٤٠ ـ وكأننى آنست يومى زائـــــلا
فرأيت فى المــــرآة كيف مسائى

* * *

(٣٧) ذرى : مرتفعات •

تحليـل ونقـد

(ا) التجربة والأفكار العامة : هـذه القصيدة ترجمـة ذاتية شعورية صور فيها مطران نفسه الممتلئة بالآلام والعلل ، فلقد مرض بعد حب أخفق فيه ، فنصحه بعض أصدقائه أن يذهب الى — المكس — من ضواحى الاسكندرية ، حيث الهواء الطلق والنسيم العليل ، عله يشفى من علته ويبرأ من سقمه • ولكنه لم ينعم هناك بما كان يؤمل من الشفاء ، بل برحت به آلام الحب فوق ما كان يعانيه من آلام المرض ، وقد كان يظن أن المرض يشفيه من الحب ، فاذا بهما يتعاونان عليه ويستبدان به على ضعفهما •

كما استبدت به وحشة البعاد والغربة ، وقد أشاع ذلك كله فى نفسه جوا كئيبا حزينا — من جراء ألمه وضيقه ووحشته — فطفق يتغنى بهذه الآلام التى تجمعت فى أعماقه ، ولم يجد غير الطبيعة يبثها شكواه ويودعها أوصابه مازجا بين ذاته وبينها ، على نمط ما فعله الشعراء الغربيون ، الذين تغنوا بآلامهم واجتروا أحزانهم ومزجوا ذواتهم بالطبيعة ومشاهدها ومظاهرها[1] •

والقصيدة كلها ترجمة صادقة عن هـذه التجربة الوجدانية الذاتية ، التى استمدها الشاعر من واقعة الأليم ، واستطاع أن يؤلف بين أجزائها فى ترابط شعورى كامل وتصوير شعرى مثير ، وضمنها الأفكار الآتية :

(ا) شكوى الشاعر مما اعتلج فى أعماقه من حزن وأسى ، حيث كان يظن أن المرض يشفيه من آلام حبه فاذا بهما يتعاونان عليه معا فذاب قلبه من الصبابة والشوق ، وأصبح جسمه غلالة رقيقة من كثرة الأمراض ، وروحه تتردد فى أنفاسه من كثرة تنهده ، والعقل غشيت أنواره الأكدار والأمراض •

---

(١) راجع : الرومانتيكية د/محمد غنيمى هلال •

وهكذا صور مطران نفسه فريسة مرضين قاتلين : مرض الحب ومرض الجسد اللذين استبدا به وأنهكا قواه ، وتركاه يئن من لوعة الشوق وجراح الألم ، وقد عبر عن هذه الأفكار فى الأبيات من الاول الى الخامس .

(ب) معاتبة حبيبته التى لم تعطف عليه ولم تعنه فى حبه الحار ، الذى تأججت جذوته ، دون أن يحظى بما يجرى فى وجدانه تيار الحنين الدافق ، الذى يملأ حياته ، ويحفظها من الانقباض والوحشة ، ثم تحسره على ما ضاع من عمره الفانى ، وعمره الذى كان يمكن أن يخلده بيانه وفنه ، لو أنها بادلته احساسا باحساس . وأنصفته مما أسلمته اليه من مرض استعصى معه العلاج ، وقد صور هذه المعانى فى الأبيات من السادس الى التاسع .

(ج) وصف مفاتن حبيبته وتغزله فيها ، فهى كوكب هديه ضلال ، وهى مورد يقتل الظماء سرابه ، وزهرة تحيى النواظر وتميت من يلتمس عبيرها ، وهو راض بضلالها لو تمتع منها بنظرة ، وتشفيه منها رشفة مكذوبة ، كما تسعده الحياة او ظفر من طيبها بنشقة وهكذا نراه :

يصرخ من بخلها عليه وصدها عنه ، ولكنه لا يلبث أن يرضى بأى شىء منها ولو كان سرابا ووهما ينعم فيه بالضلال ويشفى بالوهم . وقد تناول هذه المعانى فى الأبيات من العاشر الى السابع عشر .

وهو فى هذا الاحساس يشبه من بعض الوجوه بعض شعراء الغزل العفيف ، الذين كانوا يقنعون فى حبهم بالآمال الخادعة ، والأمانى الواهمة والصدود والتمنع وما الى ذلك ، كجميل بن معمر الذى يقول :

وانى لأمنع من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله

بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله

(د) وفى الأبيات من الثامن عشر الى الثامن والعشرين — صور الشاعر يأسه من الشـفاء من أدوائه المستفحلة وعلله المستعصيه ، التى تجمعت كلها لتحطيم قلبه وتمزيق جسده جميعا ، وحتى شفاء الجسد — ان تم — فانه لا يجدى مادامت نار الوجد متأججة فى جوانحه ، وفى هذا الجزء الصادق الحار فى القصيدة نرى الشاعر يترجم فى حرارة عما يعانيه من آلام الاغتراب ووحشة البعاد ، وتفرده بالصبابة والكآبة والعناء ، حتى انه رأى أن تداوله بالبلاد عبث من العبث ، وأن غربته من أجل الاستشفاء ضرب من العلة القاتلة التى تضاف الى رصيده الضخم من العلل والأوصاب .

ولقد تلفت مطران حوله ليجد من يشاركه همومه ويشاطره أحزانه ويبثه شكواه ولوعته ، فلم يجد غير الطبيعة التى نهضت للتسرية عنه ومعاونته فى آلامه ، حتى كأنها هى الأخرى تعانى مما يعانى منه ، بعد أن خلع عليها أحاسيسه وبثها أوجاعه وآلامه ، فالبحر اضطربت أمواجه ، وخفقت جوانبه ، والأفق اعتكرت أنحاؤه ، وقرحت أجفانه من فرط ما أصابه من الأرق والسهاد والأنين والوجد وما اليه من مشاعر حزينة كئيبة .

(هـ) والأبيات من التاسع والعشرين الى الثالث والثلاثين — نزع الشاعر فيها منزعا تأمليا فيه كثير من العبر والتوليد والايحاء ، فالغروب نزع النهار وصرع للشمس بين مآتم الأضواء ، ومحو الوجود الى مدى ، حتى يبعث الصباح من جديد .

(و) وفى الجزء الأخير من القصيدة الذى يبدأ بقوله :

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء ... الخ .

وصف لما يعانيه الشاعر من تمزق وألم واحساس ، حيث انطوى على الذكرى بقلبه الجريح وعواطفه المكلومة فى حالة بين الرجاء فى حبيبته وبين اليأس منها ، يعتصر فؤاده ويشعشع دمعه ويئن

من حواطر الذكرى المشحونة بالآلام • وقد خلع هذه الأحاسيس على الكون من حوله ، حيث اكفهرت الطبيعة واحمر الأفق واغبر المكان واضطربت الأجواء كلها ورثاه الكون بما بقى له من دمعة حزينه مزجت بآخر أدمعه ارثائه وتوديع مساء حياته •

٢ – العاطفة والفكر فى القصيدة :

تمكن مطران فى قصيدته هده من المزج بين عاطفته وعقله ، أو بين وجدانه وفكره ، وقد بدت العاطفة قوية حارة – فى بعض مقاطع القصيدة – التى تحمل من عنصر الاثارة ما يجعل القارىء يتمثل التجربة أدق تمثل ، ويتجاوب شعوريا مع معانيها التى عبرت عن الم الشاعر وحسرته ويأسه •

ويبدو ذلك واضحا فى المطلع الذى يبدأ بقوله :

انى أقمت على التعلة بالمنى فى غربة قالوا : تكون دوائى

وينتهى بقوله :

والأفق معتكر قريح جفنه يغضى على الغمرات والأقذاء

حيث سرت حرارة العاطفة بقوة فى الأبيات • فالشاعر لا يرى فى غربته ووحدته فى الاسكندرية – على طيب هوائها – علاجا لنيران قلبه ، وان شفت علة جسمه ، فيشكو الى البحر المضطرب اضطراب خواطره ، والى الصخر الأصم والموج الثائر ، ويرى فى هذه الكائنات شريكة له فى شجنه وكمده وكدرة صدره •

وتقل لوعة العاطفة وتخفت جذوتها حينما يطغى عليها العقل المنطقى ، وينزع الشاعر الى التوليد والتقسيم والاستقصاء : ونلحظ هذا فى المقطع الأول من القصيدة ، حيث جنح مطران الى استقصاء

آثار الألم فى الجسم والقلب والعقل والروح ، حتى يخيل القارىء أن الشاعر فى مرض وصف لا شكوى وبخاصة هذان البيتان :

والروح بينهما نسيم تنهــــد فى حالى التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره كدرى ويضعفه نضوب دمائى

ومثل هذه الأبيات التى طغى العقل فيها على الوجدان كثير من أبيات قصيدته ، ففى الأبيات — من العاشر وحتى السابع عشر — نرى الشاعر حريصا على الاستقصاء فى تصوير جمال حبيبته ؛ فهى كوكب مضلل ، وهى مورد خادع ، وهى زهرة تمتع العيون فقط ، وكلها صور جميلة فى خيال الفكر ، ولكن ينقصها اتقاد العاطفة ولوعة الوجد ، مما يجعل حبه عقليا فلسفيا روحه الفكرة لا العاطفة .

ومثلها الأبيات التى تبدأ بقوله :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائى

وتنتهى بقــوله :

حتى يكون النور تجديدا لهـا ويكون شبه البعث عود ذكاء

فلقد نزع فيها مطران منزعا تأمليا ، فيه كثير من التوليد والايحاء ، فالغروب نزع للنهار ، وصرع للشمس بين مآتم الأضواء ومحو للوجود الى مدى حتى يبعث مع الصباح من جديد .

على أننا لا نعيب ذلك على مطران الذى أولع بالتجديد فى شعره وقطع فيه شوطا لا بأس به ، ولعله تعمد الى هذا المزج بين العاطفة والفكر فى القصيدة حتى يكون مظهرا من مظاهر التجديد الذى نادى به .

يقول الدكتور طه حسين عن مطران فى هذا الصدد : « ... ثم هو

فوق ذلك مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ولا عقلا صرفا وانما هو مزيج منهما »(٢) .

كما عقب الدكتور محمد مندور على قصيدة مطران هذه بقوله :
« هذه قصيدة وجدانية قوية ، ولكن وجدانية مطران تغاير ما ألفه الشعر العربى فى وجدانياته ، وذلك لأنها مركبة لا تصدر عن عاطفة موحدة تنبثق من القلب مباشرة ، بل تمتزج بالخيال الشعرى ويسيطر الفكر على صياغتها »(٣) .

٣ ـ العبارة والصورة :

فى قصيدة مطران هذه كثير من العبارات الرامزة المتسعة ، التى تحمل طاقة شعورية قوية بما ينبعث فيها من وحى الألفاظ ورمزية الصور ، والتى تنم عن جرأة فى الصياغة وخروج على الاستعمال العربى المحافظ فى التعبير والتصوير .

ومنها فى قصيدته : الخواطر الكلمى ، الدمع المشعشع ، والدمعة الحمراء ، مآتم الأضواء ، وغيرها . ومثل هذه التعابير والصور قد أكثر منها شعراء المذهب الرمزى فى أوربا مثل : بودلير ورامبو وغيرهما من أتباع هذا المذهب الذين نادوا بتجاوب الحواس ، فأطلقوا على المسموع صفة المشموم ، ووصفوا الأصوات بما توصف به المرئيات وهكذا ، لاعتقادهم بأن الحواس تتجاوب ويأخذ بعضها حسنة بعض .

وقد قلدهم فى هذا كثير من شعرائنا ذوى النزعات التجديدية(٤) .

---

(٢) حافظ وشوقى ص ٣٦

(٣) محاضرات عن خليل مطران ص ١٨

(٤) راجع ة الرمزية والأدب العربى الحديث ـ أنطون غطاس كرم والمذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق د/ محمد السعدى فرهود .

ولقد تمكن مطران من أن يؤلف كثيرا من الصور الشعرية الجديدة من مجموعة هذه التعابير الرمزية المتسعة ، يؤازره خياله الخصب وتأملاته العميقة وقدرته على المواءمة فى التأليف بين أجزاء صوره ، مستعينا بمظاهر الطبيعة التى خلع على كائناتها أحاسيسه ومزج بينها وبينه مزجا عجيبا تدركه فى :

شكوى الشاعر الى البحر المضطرب اضطراب خواطره ، والى الصخر الأصم والموج الثائر ، مازجا بينها وبين ما يعتريه من ضيق وكمد وكدرة .

وذلك فى الأبيات من (٢٣ : ٢٨) ، ففيها مجموعة من الصور المتلاحقة التى شكلت فى مجموعها صورة شعريه لنفس مطران الكئيبة التى تفيض بالأسى وتنبض بالألم ، حتى كأن مكارهه وأسقامه فاضت من أحشائه على هذه الكائنات الطبيعية فأصابتها بالكآبة وانبداء :

وفى الأبيات التى تبدأ بقوله :

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وتنتهى بالبيت (٤٠) . كثير من الصور الجزئية المتلاحقة التى تعاونت جميعها فى تأليف صورة كلية حزينة معبرة عن نفس الشاعر المحزونة .

فالخواطر الكلمى تحكى السحاب الدامى ، والدمع المشعشع فى جفنه يحكى الشعاع الغارب المحمر .

والشمس فى الشفق الأحمر الباكى تنحدر وتتقطر تقطر الدمعة الحمراء التى سكبتها عينه .

وصفحة السماء خلال تلك اللحظة مرآة رأى فيها الشاعر مساء حياته .

والأبيات فى مجموعها زفرات محترقة تثيرها ذكرى الحبيب ساعة الامساء والنهار مودع .

٤ ــ الوحدة الفنية فى القصيدة :

ومن مظاهر التجديد فى قصيدة مطران هذه : تحقق الوحدة الفنية فيها الى حد كبير ، حيث عالج فيها موضوعا واحدا بنى عليه أفكار قصيدته من بدئها حتى نهايتها ، وصور فيها تجربة وجدانية عاشت فى أعماقه وترجمها شعرا فى مقاطع متلاحقة ، كل واحد فيها يعبر عن جزء من التجربة فى نمو واتساق •

بيد أن الوحدة العضوية التى طالب بها النقد الحديث ، والتى تجعل من القصيدة كلا مترابطا منسجما لا يمكننا أن نجزم بتحققها فى هذه القصيدة ، وان تمثل بها النقاد المعاصرون كنموذج لهذه الوحدة العضوية — اذ يسهل علينا أن نحذف بيتا من أبياتها أو أن نضعه فى غير مكانه دون أن يختل نظام القصيدة أو تفقد ترتيبها[٥] •

ومثال ذلك الأبيات : (١٠ ، ١١ ، ١٢) والأبيات (١٥ ، ١٦ ، ١٧) •

وليس على مطران بأس فى ذلك ، وحسبه أنه أودع شعره ما انطوى عليه شعوره ، ولكن البأس كل البأس فى تلك الدعوة الصارخة التى قيدت الشعر الغنائى بقيود الوحدة العضوية ، التى يمكن تحققها فى الشعر الموضوعى (الملحمى والتمثيلى) دون الشعر الغنائى ، وعابت على شعرنا العربى افتقاده لهذه الوحدة العضوية ، ولو حاسبنا أصحاب هذه الدعوة بما قالوا لرفضنا قصيدة مطران هذه من هذا الجانب ، مع جودتها وصدقها وتوافر عناصر الشعر الغنائى فيها • على أن شعر مطران القصصى الذى تمثلنا ببعض نماذجه فيما سبق ، قد تحققت فيه هذه الوحدة العضوية تحققا كاملا •

---

(٥) راجع : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ١٣٢ وما بعدها د/ محمد نايل •

دراسة عن مطران ١٨٧٢ — ١٩٤٩ :

— ١ —

ولد بلبنان وتلقى علومه الاولى فيها ، هاجر منها بعد ذلك هربا من بطش الحكم التركى ، فاستقر مدة عامين فى باريس ، عاد بعدها الى مصر حيث قضى فيها بقية حياته الى أن مات فيها •

تأثر مطران بالثقافة الفرنسية تأثرا وضح فى أعماله وترجماته ، كما وضح أيضا فى شعره القصصى ذى الطابع الرمزى •

أتقن اللغة الانجليزية كذلك وترجم مجموعة من مسرحيات شكسبير (عطيل) ، (تاجر البندقية) ، (هاملت) •

وهو شاعر عربى مجيد ، له ديوان شعرى مطبوع فى أربعة أجزاء بعنوان (ديوان الخليل) •

— ٢ —

وشعر مطران يعد طرازا جديدا بالنسبة لعصره ، فهو لم يلجأ فيه الى المعارضة والاحتذاء التام للقدامى كما فعل كثير غيره وانما كان يكتفى فيه باللفظ الفصيح والمفردات السليمة يحملها أفكاره ومعانيه •

تقرأ شعره فتحس بأن صورة الشعر العربى لم تتغير وذلك لاحتفاظه بأصوله الموروثة وتقاليده الفنية ، مع التعبير فيه عن نزعاته الوجدانية ومعانيه العقلية وما يجيش فى نفسه تعبيرا كاملا •

وكان مطران بطبعه نزاعا الى التجديد المعتدل مندفعا اليه ، وقد أعلن عن ذلك فى صدر ديوانه قائلا : « شرعت أنظم الشعر لترضية

نفسي حين انتخابي . أو لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلى ؛ متابعا عرب الجاهلية في مجاراة الضمير على هواه ، ومراعاه الوجدان على مشتهاه ، موافقا زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها إلا ما فاتني علمه ولم أكن مبتكرا فيما صنعت ، فقد فعل فصحاء العرب قبلي مالا يقاس اليه فعلى ، فانهم توسعوا في مذاهب البيان توسع الرشد والحزم (١) :

وفى هذا البيان الوجيز ترتسم الخطوط العريضة لمذهب مطران في شعره كما تتجلى نزعته فيه وهي نزعة محافظة مجددة في آن .

وتكمن قيمة شعره أنه أودع فيه مشاعره وضمنه أحداث عصره وبيئته ومزج فيه بين الخيال والحقيقة كما يقول : « هذا شعري وفيه كل شعوري — هو شعر الحياة والحقيقة والخيال نظمته في مختلف الآونة .... وقيدت فيه زفراتي وأحلامي ، وسجلت بقوافيه أحداث زماني وبيئتي في دقة واستيفاء »(٢) .

ولقد نوه بمطران وبشعره كوكبة من أعلام النقد المعاصر وعدوه في الطليعة من الشعراء المجددين ، ففيما عقب به الدكتور طه حسين على كلام مطران الذي صدر به الجزء الأول من ديوانه — ما يفيد بأن مطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه مجددا لا مقلدا »(٣) .

كما يرى : « أن لمطران في جمال الشعر مذهبا ان لم يكن واضحا كل الوضوح ولا مبتكرا كل الابتكار ، فهو على كل حال مذهب قيم ،

---

(١) مقدمة ديوان الخليل ١/٨ ط ٢ دار الهلال ١٩٤٩ .

(٢) مقدمة ديوان الخليل ٢/١ وما بعدها .

(٣ ، ٤) حافظ وشوقي ص ١٥ ، ١٦.

لأنه يمثل شيئا من المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات وتتنافر وتتدابر ، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء ، حسنة التأليف فيما بينها .

ثم هو فوق ذلك مقتصد يرى أن الشعر ليس غيالا صرفا ولا عقلا صرفا وانما هو مزاج منهما »(٤) .

وذهب الأستاذ العقاد الى أن مطران مجدد ، وسبيل هذا التجديد عنده ثقافته الأوروبية التى وعاها فى وقت مبكر يقول : « أما أنه من المجددين فذلك ما لا ريب فيه ، ولكنه لا فضل له فى تجديده ، لأنه لم يكن يستطيع غيره ... لأنه درج على الدراسة الأوروبية ولم يفرض عليه الماضى الموروث أن يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية أو بقايا الآداب الاسلامية(٥) .

كما يرى الدكتور مندور « أن الاجماع يكاد ينعقد على أن خليل مطران يعتبر رائدا للمدرسة الجديدة فى الشعر العربى المعاصر ، التى تبدأ بمطران وتمتد فى جماعة أبو لو خلال أبى شادى وناجى ومن سار على دربهما فى مصر وغيرها من البلاد العربية »(٦) .

ونرى أن مطران وان حافظ على ديباجة القصيدة القديمة فى كثير من عناصرها – كان ولعا بالتجديد ، وقد نادى به منذ وقت مبكر فى مطلع هذا القرن ، ولعل دعوته الى وحدة القصيدة وتلاحم أجزائها وتلاؤم أبياتها ، قد سبقت دعوة العقاد مع زميليه – شكرى والمازنى – اليها »(٧) .

---

(٥) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٩٩

(٦) محاضرات عن خليل مطران ص ١١ بتصرف يسير .
وانظر : دراسات فى الأدب العربى وتاريخه ص ١١ ومايليها د/ ناجى ط ٢

(٧) كانت دعوة الخليل ١٩٠٨ قبل أن ينشر العقاد كتاب الديوان مع زميله المازنى ١٩٢١ انظر : المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣

بل ان هذا التجديد كان بالنسبة لمطران أمنية كبرى تراوده وتلاحق خيالاته يقول : « أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى فهى آن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره ، وأن أستطيع اقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات اذا حفظت وخدمت حق خدمتها ، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون »(٨) .

وكلام مطران هذا يعبر عن رغبة شديدة فى التجديد . وحب جارف للغة العربية التى آراد لها مطران ان تنمو دلالاتها وتتوسع تعابيرها ، حتى تنهض للتعبير عن دقائق الحس وخلجات النفس وكل ما يجد من مبتكرات وما يستحدث من فنون ، هذا على خلاف ما ذهب اليه العقاد سابقا من أن تجديد مطران نابع من ثقافته الأوروبية ، ولا فضل له فى تجديده لأنه لم يكن يستطيع غيره ، ولأن الماضى الموروث لم يفرض عليه أن يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية(٩) .

بيد أن مطران كان رزينا فى دعوته الى التجديد متأنيا فيه ، لم يروج لها بحملة عاتية او بهجوم ضار يشنه على مخالفى مذهبه — كما فعل غيره — ، ولم ينسلخ عن القديم الذى بدأ به حياته الشعرية ، وله فيه نتاج ضخم ضمه ديوانه ، ونهج فيه نهج القدامى فى أغراضهم وصورهم ومعانيهم .

وانما جدد بأناة وحذر ، وقطع على طريق التجديد شوطا لا بأس به ، وان بالغ فى وصفه وتقديره من رأى أن مطران « قد استقر على مدرسة جديدة يومئذ فى الأدب العربى هى المدرسة الرومانسية ، التى ألقت بها اليه ثقافته الفرنسية وبرزت لأول مرة فى جيله وحدة القصيدة فى الشعر العربى »(١٠) .

---

(٨) مقدمة ديوان الخليل ٢/٢ ، ٣

(٩) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٩٩ ، ٢٠٠

(١٠) بلابل من الشرق ص ١١٠ صالح جودت .

ودليلنا على ذلك أنه وان كان قد صاغ كثيرا من وجدانياته على نمط الشعراء الرومانسيين وسمات شعرهم ، وأدخل ألوانا جديدة فى شعرنا الحديث ـ كالشعر القصصى ـ مثلا ، فأنه لم يستطع التخلص نهائيا من طابع القديم ومادته وقالبه وأغراضه . مع أنه قد أباح لنفسه ان تبتكر فى الصياغة وأن تفتن فى الخيال •

ومن ثم فشعره ـ فيما نرى ـ مزيج من القديم والجديد ، وان شئت قلت : مطران وسط بين شعراء الجيل المحافظ كالبارودى وحافظ وشوقى ، وبين شعراء الجيل الجديد ـ كجماعة الديوان وجماعة أبولو ـ هذا ما نرتضيه •

ـ ٣ ـ

(١) ومن شعره فى الوطنية قوله : فى رثاء عمر المختار (١١) زعيم طرابلس الذى استشهد تحت نير الاستعمار الطليانى :

لله يا « عمر المختار » حكمته فى أن تلاقى ما لاقيت مظلوما

ان يقتلوك عما ان عجلوا أجلا قد كان مذ كنت مقدورا ومحتوما

هل يملك الحى لو دانت له أمم لأمر ربك تأخيرا وتقديما ؟

لكنها عظة للشرق أوسعها مصابه بك فى الأخلاد تجسيما

لعله مستنيق بعد ضجعته
أو مستقيل من الخسف الذى سيما ••الخ

وهذا غرض من الأغراض الجديدة التى استوحاها مطران من أحداث عصره لكنه صب فى قالب قديم ـ كما ترى ـ •

---

(١١) ديوان الخليل ٤/٨١ ، ٨٢ ط ٣ • وانظر : دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ١٢٢ : ١٤ د/شوقى ضيف ط ٥

وقد تناول شوقى هذا الغرض ذاته ، ولكنه كان فى تصويره له وتعبيره عنه أروع فنا وأصدق عاطفة من مطران ، حيث مزج فى براعة بين عاطفة الحزن على استشهاد الزعيم البطل ، وبين عاطفة الوطنية المتأججة التى تمجرت غيظا وحنقا على الاستعمار وغدره ، وحفزت على مقاومته وترصده •

يقول شـــوقى :

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء   يستنهض الوادى صباح مساء

يا ويحهم : نصبوا منارا من دم   توحى الى جيل الغـــد البغضـــاء

ما ضر لو جعلوا العلاقة فى غد   بين الشعوب مودة وإخاء ؟

جرح يصيح على المدى وضحية   تتلمس الحرية الحمراء الخ(١٢)

(٢) ومن نماذج شعره القصصى الذى ترابطت أجزاؤه وتماسكت أبياته ، وتحققت فيـــه الوحدة العضوية ــ قصيدته فتـــاة الجبل الاسود(١٣) — ، التى نظمها فى حادثة جرت قبيل استقلال ذلك الجبل، وفيها يمجد الكفاح من أجل الحرية والاستقلال •

وقد ساق أحداثها فى أسلوب قصصى مثير ، ارتبطت فيه الأحداث ارتباطا قويا ، يدل على تماسك القصيدة ووحدتها وهو ما ألح عليـــه النقد الحديث وطالب الشعراء بالتمسك به فى شعرهم •

ومنها هذا المقطع فى وصف هذه الفتاة :

وأرخت ضـــفائرها فارتمت   الى منكبيها من المعقـــد

تحيط دجـــاها بشمس عرا   ها سقام فمالت الى فرقد

---

(١٢) الشوقيات ٣/١٧ ــ ٢٠
(١٣) ديوان الخليل ١/١٧٩ : ١٨٣

وقالت : أمهجه أنثى تفى بتارات صرعانم الهمـد ؟
تفانوا فما خاض فى وقعة غنى من مسـود و لا سـيد
يرى العز فى نصر سلطانه والا غمى موت مستشـهد
فاصغى الأمير الى قولهـــا ولم يستفز ولم يحقـد .
واعظم نفس الفتاه ويسا سابها فى الصناديد لم يعـهد
وجسـنا بمتحركة داعيـا الى الشرك من يره يعبـد
أبى عزة قتـل أنثى تذو د ذياد المدافع لا المعتـدى
فقـال انقلوها الى مـأمن واوصوا بها نطس العود .. الخ

ومن شعره القصصى غير هذه القصيدة قصائده ـ حكاية عاشقين ـ وحرب غير عادلة ـ والجنين الشهيد ـ وغرام طفلين ـ والطفل الطاهر ـ وفنجان قهوة ـ ومقتل بزرجمهر ـ ونيرون ـ وغيرها من قصائد قصصية استطاع بهـا الخليل أن يدخل هذا اللون من الشـعر الموضوعى فى أدبنا المعاصر :

وذلك بما وهب من مقدرة على رسـم الشخصيات والغوص فى أعماقها : والتقاط آدق السمات والملامح لها ، وابرازها فى اطار يموج بالصراع والحركة ، ويكشف عما يعتمل فى داخلها ويهمس فى حناياها ، وهذا مظهر من مظاهر تجديد مطران فى دنيا الشعر العربى المعاصر مضمونا وشكلا (١٤) .

(٣) ومن نماذج شعره الذى مزج فيه بين مظاهر الطبيعة وبين الانســـان ـ على نمط ما يفعل الرومانسيون الغربيون فى بعض مضامينهم (١٥) .

---

(١٤) انظر : جماعة أبولو د/عبد العزيز الدسوقى .
(١٥) راجع : الأدب المقارن ص ٣٥٨ ط ٣ د / محمد غنيمى هلال

قصيدته ــ المرآة الناظرة (١٦) ــ التي يصور فيها حسناء تمشي في صحبة أمها في حديقة الجيزة في أصيل يوم هبت فيه ريح السموم، وقد رأى الشاعر هذه الفتاة تنظر في عيني أمها وتصلح شعرها فاستمد من هذا المنظر أحداث تجربته الوجدانية الحية •

ومنهــا قوله :

عاجت أصيلا بالرياض تطوفها كمليكة طافت معاهد حكمها
حسناء أمرها الجمال فأنشــأت في أيكها الأطيار تخطب باسمها
والحسن أكمل ما يكون شبيبة في بدئها ، وملاحة في تمهــا
سترت بأخضر سندسي جيدها فحكا المحيــا وردة في كمهــا
وتمايلت في ثوب خز مورق غصنا وهل للغصن نضرة جسمها؟
فاذا دنت في سيرها من زهرة همت بأخذ ديوانهــا ويلثمها
او جاورت فرعا رطيبا لينــا الوى بمعطفــه ومــال لضمها
ويحف أبصــار بهــا فيحزنها بحيائهــا ويسكنها في وهمها
كالنحل طفن بزهرة فلســعنها ورشفن منها مارشفن برغمها ••الخ

* * *

(١٦) ديوان الخليل ١/٢١ وما بعدها •

٦ — من قصيدة الأطلال لناجى

ومن شعر ناجى قصيدة — الأطلال — ذائعة الذكر التى سنعرض لها بالدراسة والنقد فى منهج تحليلى نبين من خلاله خصائص المذهب (الرومانسى) الذى مثله ناجى فى شعره أدق تمثيل وهى مثبتة فى ديوانه وراء الغمام(١) • ق

يقـول ناجى :

يا فؤادى رحم الله الهـوى كان صرحا من خيال فهوى
اسقنى واشرب على أطـلاله وارو عنى طالمـا الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبرا وحديثا من أحاديث الجوى
وبسـاطا من ندامى حـلم هم تواروا أبدا وهو انطوى

* * *

يا رياحا ليس يهـدا عصفها نضب الزيت ومصباحى انطفا
وأنا أقتات من وهم عفـا وأفى العمـر لناس مـا وفى
كم تقلبت على خنجره لا الهوى مال ولا الجفن غفا
واذا القلب على غفرانه كلمـا غار به النصل عفـا

* * *

يا غراما كان منى فى دمى قـدرا كالموت أو فى طعمـه
ما قضـينا سـاعة فى عرسه وقضـينا العمر فى مأتمـة
ما انتزاعى دمعـة من عينـه واغتصابى بسـمة من فمـه
ليت شعرى أين منه مهـربى أين يمضى هارب من دمـه

* * *

---

(١) ط دار العودة بيروت ١٩٧٣ م

لست أنســــاك وقـــد أغريتنى بفم عــذب المنــــاداة رقيــق
ويـد تمتـد نحـوى كيد من خلال الموج مدت لغريق
آه يـا قبلة أقـدامى اذا شكت الأقدام أشواك الطريق
وبريقـا يظمـا السـارى له أين فى عينيك ذياك البريق

* * *

لست انســاك وقـد أغريتنى بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح فى سمائى وأنـا لك أعلو فكأنى محض روح
يـا لهـا من قمم كنا بهـا نتـــلاقى وبسرينـا نبــوح
نستشف الغيب من أبراجها ونرى الناس ظلالا فى السفوح

* * *

أنت حسن فى ضحاه لم يزل وأنا عنـدى أحزان الطفل
وبقايا الظـل من ركب رحل وخيـوط النور من نجم أفـل
ألمح الدنيـا بعينى ســـئم وأرى حولى أشـباح الملل
راقصــات فوق أشلاء الهوى معولات فوق أجـــداث الأمل

* * *

ذهب العمر هبــاء فاذهبى لم يكن وعـدك الا شـبحا
صفحة قـد ذهب الدهر بها أثبت الحب عليهـا ومحـا
انظرى ضحكى ورقصى فرحا وأنـا أحمـل قلبـا ذبحا
ويرانى النـاس روحا طائرا والجوى يطحننى طحن الرحا

* * *

كنت تمثال خيـالى فهـوى | المقـــادير أرادت لا يـــدى
ويحها لم تدر ماذا حطمت | حطمت تاجى وهدت معبدى
يا حيـــاة اليـائس المنفرد | يـا يبابا مـا به من أحـد
يا قفارا لافحـات مـا بها | من نجى .. يا سكون الأبد

* * *

أين من عينى حبيب ساحر | فيـه نبـل وجلال وحيـاء
واثق الخطـــوة يمشى ملكـــا | ظالم الحسن شهى الكبرياء
عبق الســحر كأنفاس الربى | سـاهم الطرف كاحلام المساء
مشرق الظلمـة فى منطقــــة | لغــة النور وتعبير الســماء

* * *

أين منى مجلس أنت بــــه | فتنة تمت ســـناء وسـنى
وانـــا حب وقلب ودم | وفراش حائر منـك دنـا
ومن الشـــوق رسـول بيننا | ونديم قـدم الكأس لنـــا
وسقانا فانتفضنا لحظـــة | لغبـــار آدمى مســـنا

* * *

ومنها قوله :

يــا حبيبـا زرت يومـا أيكه | طائر الشـــوق أغنى ألمى
لك ابطـاء المدل المنعم | وتجنى القــادر المحتكم
وحنينى لـك يكوى أعظمى | والثوانى جمرات فى دمى
وأنــا مرتقب فى موضـعى | مرهف السمع لوقع القـدم

* * *

يا حبيبى كل شىء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء

ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء

فاذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء

ومضى كل الى غايته لا تقل شئنا وقل لى الحظ شاء

* * *

وتتكون هذه القصيدة من حوالى اثنين وثلاثين مقطعا ، كل مقطع منها يتألف من أربعة أبيات مختلفة القافية ــ كما رأيت • ولرقة ألفاظها ولطف جرسها وروعة موسيقاها وطواعيتها للتلحين والغناء ، شجت ببعض مقطوعاتها أميرة الغناء العربى الفنانة الراحلة السيدة /أم كلثوم •

* * *

حول القصيدة ــ تحليل ودراسة ونقد ــ

١ ــ الأفكار العامة فى القصيدة :

ناجى شاعر من أبرز شعراء جماعة أبولو ــ كما ذكرت ــ وكثير من شعراء هذه الجماعة كانت له نزعته الرومانسية التى تجلت فى صور الحب الحزين المحروم الذى كان ينتهى غالباً بالفراق أو الموت، وذلك ليأسهم من الحياة وعجزهم عن التصدى للواقع الذى كانوا يعيشون فيه ، وهروبهم من هذا الواقع الى عالم خيالى يحلقون فى أحلامه ويهيمون بأوهامه ، ومن ثم بعد معظمهم فى شعره عن مجتمعه وما اضطرب فيه من أحداث ، وعاش لذاته وحدها يترجم عن خلجات نفسه ويصور مشاعره وأحاسيسه فى شعر وجدانى حزين ، يتغنى فيه بآلامه وأمانيه مرتميا فى أحضان الطبيعة التى خلع عليها أحاسيسه وأودعها نجواه وبثها شكواه •

وقصيدة ناجى هذه صورة لهذا اللون من الشعر ، الذى طغى فيه الوجدان الفردى على الوجدان الجماعى . فهى تصوير لتجربة وجدانية ذاتية عاشها الشاعر واصطلى بنارها ، وجاشت فى أعماقه معانيها ، فصورها تصويرا بائسـا حزينا تارة ، نادما أسفا تارة ثانية متلهفـا ظمآن تارة ثالثة •

والقصيدة فى جوهرها تحكى قصة حب عاثر كانت نهايته نهاية مأساوية حزينة ، فلقد التقى ناجى بحبيبته وتحابا حبا ملك عليه لبه وسيطر على عواطفه بيد أنه كان حبـا شـقيا محروما ــ كحب كثير من الشعراء الروماسيين الذين قرأهم ناجى وتأثرهم فى شعرهم الذى أعجب به اعجابا لا حد له ــ فضلا عن واقعية هذه التجربة ، التى ابدع خيال ناجى فى تصـويرها وحبك أحـداثها والتى انتهت انتهاء أليما اذ أصبحت أطلال جسـد بينما صـار هو أطلال روح •

وقد اختار الشاعر لقصيدته عنوانا موحيا بهذا المعنى ، ومشيرا الى نتيجة تلك القصة التى عاشها مع صاحبته وهو ــ الأطلال ــ •

بدأ ناجى أطلاله بداية حزينة مؤلمة ، كلها أنين ونواح وأسف على حب ضائع عفت معالمه وانطمست آثاره ، وأضحى خبرا تتناقله الألسنة وتردده الشفاة ، وان بقيت ذكراه مشعشة فى وجدانه وجروحه غائرة فى أحشائه ، لا تندمل من شدة الانسكاب وغزارة التدفق •

فهو يئن من لوعة الفراق ويلتاع من شدة الوجد ، ويندب حظـه العاثر الذى أسلمه وحبيبته الى فراق كئيب ، وهكذا ظل ناجى يبكى من آلام الفراق وفرط الصبابة ولوعة الشجـن فى المقـاطع الأولى من قصيدته

ويمضى الشاعر مع خياله الجامح ، مخاطبا فؤاده الجريح مع ذكر

الحبيبة ، العاجز عن نسيان ذلك الحب الدافق الذى عاشه ، والحلم الدافىء الذى مر به وتمرغ فى كنفه فترة قصيرة من الزمان ، معللا عجزه عن نسيان تلك الذكرى الحلوة ، بما تخيله فى حبيبته من فتنة فاتنة واغراء مغر ، مصــورا تحسره على المــاضى الأليم الذى خلف من ورائه الهموم والجراح والآلام وذلك فى حسرة ولوعة وشجن •

ثم تثور ثائرة ناجى وتهتاج عواطفه وتشتعل نار الوجد والشوق فى حناياه ، لضياع عمره هباء دون أن يحظى بما كان يؤمله من وراء هذا الحب الفانى الذى حطم حياته ، وهد كيانه وأسلمه الى حيــاة قاتلة يائســـة •

ولكنه بعد ذلك يراجعه حنينه ويعاوده هيامه ويعلن عن ظمئه الى حبيبته التى فتنته بسحرها ونبلها وجلالها وحيائها وحسنها الظالم وخطوتها الواثقة وسحرها العبق وظرفها الفــاتك وطلعتها المشرقة ، وغيرها من مظاهر الحسن وملامح الدلال التى برع الشاعر فى تصويرها براعة فائقة •

ثم يعاوده الحنين ويشده الشوق الى حبيبه مرة أخرى ويسترجع شريط ذكرياته معها ، معلنا فى حنين ولهفة عن أنينه وشجنه وزفرته ولوعته ، تلك التى ما برحت به ممنيا نفسه بلقائها بعدما عز اللقاء ، حتى اذا هدأت عاطفته فى المقاطع الأخيرة من القصيدة راح يطلب لهــا الراحة وينشـــد لها الهـــدوء بعـــد أن حـــرمت من الود والعطف كما حرم هو تماما •

* * *

هذه أبرز الأفكار التى صورتها قصيدة ناجى هذه ، وهى — فيما نرى — أفكار متآخية كل مقطع فيها متلاحم فى أبياته ، وقد صور جزءا من التجربة الشعرية التى هزت وجدان الشاعر ، فعبر عنها هذا التعبير الصادق المثير •

٢ ـ التجربة الشعرية :

كان ناجى ـ كما ذكرت ـ معجبا اعجابا لا حـد له بالنزعـة الوجدانية الذاتية التى تميز بها شعر الرومانسيين الأوربيين ومن سار على مذهبهم من شعرائنا المعاصرين ، وهى نزعة تعتمد على الترجمة عن نوازع النفس وخلجاتها وتصوير العواطف الذاتية لمنشئيها ، دون العناية بتصوير الوجدان الجمـاعى ، بما يحمله من عواطف قوميـة واجتماعية وغيرها ، وقد كان ذلك من العوامل التى ساعدت على تقويض هذا المذهب ، وجعلته عرضة لسهام النقد العنيفة التى وجهت اليـه والى شعرائه من جانب النقاد المحافظين(٢) •

وقصيدة ناجى هذه تصوير لتجربة وجدانية ذاتية ، انفعـل بها الشاعر وجاشت فى أعماق نفسه خواطرها وأحـداثها ، وهى تجربة واقعية صادقة بعيدة عن الزيف والتقليد ، الذى يذأى بالتجربه عن جمال الفن واثارته وصدقه ، وقد اسـتمدت تلك التجربة اثارتها وصـدقها من الواقع الشعورى الأليم الذى عايشـه الشاعر . فهى مرآة صادقة لشخصية شاعر جريح يئن من اطلال سعادته ويبكى على أطلال حبه •

ولقد عمل على صدق هذه التجربة الشعورية ـ فى أطلال ناجى هذه ـ بل وربما فى شعره الوجدانى كله ـ أنه شاعر وجدانى صادق مع نفسه ومع وجـدانه جميعا . انبعث شعره من أعماقه ، وعبر فيه عن دفقات شعوره ، ونبض عاطفته وذوب وجدانه ، وصـور شيـئا مما انطوت عليه نفسه من الام وآمال •

---

(٢) راجع فى ذلك : الشعر المصرى بعد شوقى ـ الحلقة الثالثة ـ د/ محمد مندور والرومانتيكية د/ محمد غنيمى هلال •

وهذه القصيدة ــ كما ألمحت آنفا ــ تحكى قصة مأساوية حزينة ، عاشها الشاعر وتلظى بنارها وأن من زفراتها ، ومن ثم اتسمت التجربة الشعورية فيها بالصدق الشعورى والفنى ، لأنها أتت مطابقة لوجدان الشاعر معبرة عن حقيقة مشاعره وانطباعاته .

وصدق التجربة عنصر مهم من عناصر الجودة الفنية ، ودليل قوى على خلود الشعر فى عالم الفن الشعرى المعتد به ، ولن يتأتى ذلك للتجربة الشعورية حتى يبرزها الشاعر فى اطار فنى متكامل ، تتعاون العبارة والموسيقى والصورة فى تجسيده وملء قسماته ، وعندئذ تكون التجربة تجربة شعرية حية كاملة ، وقد اشترط النقد الأدبى الحديث فى هـذه التجربة الشعرية الكاملة أن تقوى على تأدية دورها فى التأثير على المشاعر ، وذلك باكتمال تصويرها الفنى من ناحية الصياغة والأسلوب ! لأن هـذه الصياغة الفنية هى الطريق الى ابراز الصورة الخيالية والمشاعر النفسية بكل ما تحمل من ايحاء وتأثير(٣) .

٣ ــ الصورة الأدبية :

وعلى ضوء ما ذهبنا اليه آنفا فان التجربة الشعورية تظل مختمرة فى أعماق الشاعر حبيسة بين جوانحه ، ولا يطلق عليها تجربة شعرية حقيقية ، حتى يلبسها الشاعر ثوبا من التعبير والتصوير يخرجها من أعماق الشعور الى عالم الواقع المحسوس ويبرزها فى اطار فنى بديع ، قوامه الصياغة الفنية المعبرة والعبارة الموحية المشعة ، التى تحمل بين طياتها معاناة الشاعر وما يجيش فى أعماقه من انفعالات وأحاسيس ثم الخيال الرحب المفتن المجسد للتجربة تجسيدا حيا مثيرا ينمو فى اطراد واتساق ويجعل القارىء يحس كما أحس به المنشىء .

---

(٣) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٣٩ ، ٤٠ د/محمد نايل .

ولقد وفق ناجى أنى حد كبير فى انتخاب اللفظة وانتقاء العبارة والتوسع فى دلولهما - كما وفق فى تأليف الصورة الشعرية المجسمة لتجربته الشعرية وأحداثها ، تؤازره ملكته الفنية الصناع وموهبته الأدبية الفذة ، وخياله الرومانسى الفسيح — الى جانب غزارة ثقافته وتعدد روافدها ومعايشته التجربة وعمق تأثره بها ، حيث انتقى من اللغة ألفاظا عذبة موحية ، ذات جرس موسيقى معبر عن أنينه ونشجه ولوعته وشجوه ، كما تخير من العبارات ما يقوى على الترجمة الأمينة عن معاناته النفسية .

كذا افتن الشاعر فى تأليف الصور الجزئية الرائعة ، من استعارات بارعة وكنايات لطيفة وتشبيهات مصورة ، مخالفا طريقة القدامى غالبا فى تأليف صورهم وطريقة تخيلهم وذلك — ككل الشعراء الرومانسيين — الذين توسعوا فى دلالات الألفاظ وايحاءاتها وفى ضروب الخيال وفنونه .

ومن مجموع هذه الصور الجزئية يطلع علينا الشاعر فى بعض مقاطع قصيدته هذه بصور كلية جديدة — تعاونت الظلال والألوان والأصوات والحركات والسكنات — فى ابراز خطوطها وتجليه قسماتها .

ولم يخل مقطع من مقاطع قصيدته من تلك الخصائص الفنية التى أومأنا اليها ، من عبارة موحية مشعة معبرة عن الجو النفسى الكئيب الذى أحاط بالشاعر ، ومن أخيلة جزئية مصورة لمعاناة الشاعر وانفعالاته ، ومن صور كلية دالة على شخصية شاعر ممزق الفؤاد مكلوم العاطفة .

ونتأمل هذا المقطع الذى ترجم فيه ناجى عن حرمانه ويأسه وشقائه وتعاسته .

يارياحا ليس يهدا عصفها نضب الزيت ومصباحى انطفا

وأنا أقتات من وهم عفا وأفى العمر لناس ماوفى

كـم تقلبت على خنجـــــــره   لا الهوى مال ولا الجفن غفـا

واذا القلب على غفـــرانه   كلمـا غار به النصـل عفـا

ثم تأمل قوة هــذا التصوير الشــعرى الذى صور فيه ناجى معاناته النفسية وجوه الكئيب المشــحون بالآلام والأحزان ، محبيه حسن لم يزل فى ضحاه ، وهو حزين كئيب يأسى على الركب الذى رحل ولم يبق غير شىء من بقايا ظله ، ونجم حبه قد أفل وبقى شىء من خيوط نوره ، وأشباح الملل ترقص من حوله فوق أشلاء هواه ، وتعول وتنوح فوق أجداث أمله الفانى المحطم ، وكلها صور توحى بالانقباض والاكتئاب والأسى .

وذلك فى قوله :

أنت حسن فى ضحاه لم يزل   وأنا عندى أحزان الطفـل

وبقايا الظل من ركب رحل   وخيوط النور من نجم أفل

ألمح الدنيـا بعينى سـئم   وأرى حولى أشــباح الملل

راقصات فوق أشلاء الهوى   معولات فوق أجداث الأمل

وتدرك جمال الصورة الشعرية وسحرها ونفاذها وقوة تأثيرها فى هــذا المقطع الذى صور فيه شاعرنا جمال حبيبه ونبله وجلاله وسحره وحياءه وثقته وحسنه الظالم وكبرياءه الشهى ، وهى صفات تعشقها وهام بها وأسى على حرمانه وضياعها منه فى قوله :

أين من عينى حبيب ساحر   فيــه نبل وجلال وحيــاء

واثق الخطوة يمشى ملــكا   ظالم الحسن شهى الكبرياء

عبق الســحر كأنفاس الربى   ساهم الطرف كأحلام المســاء

مشرق الطلعة فى منطقـــه   لغة النور وتعبير السـماء

٤ ـ العاطفة وأثرها فى الصياغة الفنية :

عاطفة ناجى فى أطلاله هذه عاطفة حارة ملتهبة قوية ثائرة اشتعلت جذوتها من بدء القصيدة حتى نهايتها ، لم تخمد ولم تسكن ولم تخفت حرارتها الا فى بعض المقاطع التى أذعن الشـاعر فيها للقضاء وأسلم نفسه القدر قانعا بقسمته راضيا بحظه ـ على الرغم منه ـ وهى عاطفة شـاعر مكلوم مزق الهوى أحشاءه وأبلى الوجد جسده ، وصار حبه طللا دارسـا تهيجه الذكرى الأليمة المضة ، ولقد تنوعت انفعالات الشاعر وتلون أنينه فى كل مقطع من مقاطع قصيدته ، حيث بدأها بصراخ عال ونداء ثائر وجهه الى فؤاده المزق على هذا النحو :

يافؤادى رحم الله الهـوى كان صرحا من خيال فهوى

اســقنى واشرب على أطـــلاله

واروعنى طالمـا الدمـع روى ..

الخ المقطع

* * *

وفى المقطع الثانى يشـكو شكاية مرة من حبـه الضائع ، الذى عصفت به ريح الفراق .. تلك الريح الهائجة الشديدة التى اقتلعت جذور حبه من أساسها ويتحسر فى مرارة من نضوب هـذا الحب وانطفاء مصباحه الذى كان يضىء عليه حياته ، كما ينضب زيت المصباح فينطفى نوره ويبقى الكون من حوله يتخبط فى ظلام دامس وليل بهيم حيث يقول:

يا رياحا ليس يهـــدا عصفها

نضب الزيت ومصــباحى انطفـا

وأنا أقتــات من وهـــم عفـا

وأفى العمـــر لناس ما وفى ..

الخ المقطع

* * *

وفى مقطع آخر نرى الشاعر يأسى على عرس غرامه الذى انمص فى برهة وجيزة لم تطل معها نعمة البهجة وأنس العيش ، ويتحسر على مأتم حبه الذى لازمه بقية حياته وأسلمه الى قدر كئيب ، وهـذه كلها عواطف ملتاعة مشحونة بأنات الهوى وآهاته الدارفة وصرخاته الممزقة ، وقوة العاطفة وحرارتها وصدقها فى مثل هذه التجربة التى عاشها ناجى ، ذات أثر قوى فى انتقاء الألفاظ المعبرة عن الجو النفسى المشحون بالخائبة الملىء برنات الأسى ، وفى انتخاب العبارات الموحية بما يعانيه الشاعر من ندم وأسف وحسرة ولوعة •

كقوله : — رحم الله الهوى — الصرح الهاوى — الأطلال — الدمع روى — حديث الجوى — تواروا — انطوى — فى المقطع الأول •

— رياح لا يهدا عصفها — نضب الزيت — مصباحى انطفا — اقتات من وهم عفا — تقابت على خنجره — غار به النصل — فى المقطع الثانى — وهكذا فى بقية مقاطع القصيدة •

وعلى الرغم من قوة عاطفة ناجى وتدفق عباراته المترجمة عنها ، نراه يهدأ فى بعض مقاطع قصيدته ويصور عاطفته فى معان متأنية وصياغة رزينة ، ونفس هادئة بقسمتها قانعة بما قدر لها ، مؤملا جمع الشمل فى غيابه بعد أن عز اللقاء فى حاضره ، ندرك ذلك فى قوله :

ياحبيبى كل شىء بقضـــاء ما بأيدينا خلقنا تعســاء

ربمـا تجمعنـا أقـــدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء

فاذا أنـــكر خل خـــله وتلاقينـا لقـاء الغـــرباء

ومضى كل الى غايتـــه لا تقل شئنا وقل لى الحظ شاء

***

٥ ــ الموسيقى الشعرية :

عنى ناجى فى شعره بموسيقى قصيده فنوع فيها وافتن فى تلوين أنغامها ولم يلزم نفسه بنظام القافية الرتيبة التى ألزم بها الشعراء المحافظون أنفسهم ، ولكنه بنى قصائده على نظام المقطوعات غالبا ، فنظم فى قالب رباعى ــ كقصيدة الأطلال هــذه ــ كما نظم فى قالب مثنوى كقصيدته ــ العودة ــ التى بدأها بقوله :

هــذه الكعبة كنا طائفيهــا والمصــلين صــباحا ومســاء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء (٤)



ولقد وفق ناجى فى تأليف نغمه الموسيقى فى قصيدته التى بين أيدينا ، وصاغها فى لحن عذب شجى ، جلبه الوزن الشعرى الرتيب الذى أضفى على التصوير الشعرى جمالا وفنا ، وأحدث فى القارىء نشوة وطربا ، والوزن الشعرى الذى صب ناجى فى قالبه معانيه خاصية فى الحكاية والأداء لا ينهض للتعبير عنها سواه من بين بحور الشــعر المعروفة وهو ــ بحر الرمل ــ الذى استأثره بهذه المقاطع الموسيقية :

فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن

وقد اهتدى اليه الشاعر بذوقه الفنى وحاسته الموسيقية ، حيث صب دفقاته الشعورية فى قالبه الموسيقى ، الذى نهض للتعبير عن هــذه الأحاسيس التى اختلجت فى أعماق شاعرنا ، وجاء تنويعه فى قوافى قصيدته ، فزاد من جمال الايقاع الشعرى الذى يهز الوجدان وتطرب له النفس •

---

(٤) القصيدة مثبتة فى ديوانه ــ وراء الغمام ــ وقد سقت بعض أبياتها فيما سبق •

ولم يلزم ناجى نفسه بوحدة القافية تخلصا من قيودها الرتيبة التى تجعل من الشاعر أسيرا لكلمات بعينها قد لا تعينه على تصوير مشاعره وترجمته ترجمة آمينة عن مكنون خواطره — وهذه الموسيقى التى تتاتى من الوزن والقافية يطلق عليها « الموسيقى الخارجية » وهى النغم الشعرى الجميل الذى يجلبه الوزن الشعرى العروضى والايقاع الذى تحدثه القافية الموحدة أو المنوعة — كما ذكرنا — وذلك فى مفهوم النقد الأدبى الحديث •

وهنالك موسيقى أخرى داخلية فى القصيدة ، توافرت مقوماتها من الكلمات ذوات الجرس الموسيقى المعبر عن جو الشاعر النفسى المشحون بالألم والندم والأسى والحسرة على ما حل به من جراء تلك التجـربة القاسية الأليمة •

— وللألفاظ اللغوية خصائص صوتية تحمل قدرة على حكاية المعنى وتصويره ، وترجع الى طبيعة حروف الكلمات ومخارجها فى النطق من جهر وهمس وشدة ولين وغيرها ، وهذه الموسيقى التى تحدثها الكلمات هى التى عناها النقد القديم فى دعوته الى التلاؤم بين اللفظ والمعنى بحيث يكون للغزل ألفاظ غير ألفاظ الفخر والحماسة وللهجاء ألفاظ غير ألفاظ العتاب والشكوى • ويمكنك أن تدرك هـذه الموسيقى « الداخليـة والخارجية » وأن تتذوق جمالها وأثرها فى تصـوير معانى الشـاعر والترجمة عن أحاسيسه فى قصيدة ناجى هذه من أولها حتى نهايتها ، ونكتفى هنا بسوق هـذا المقطع الذى عبر فيه ناجى عن حبه السامى التسامخ ، وعن كبرياء هـذا الحب وعظمته وما أحدثه فى نفس كل منهما من مجد وشموخ ورفعة وشمم ، وقد تعاونت الكلمـات بما لها من جرس موسيقى ورنين هادىء وايحاء مثير وتصوير رائع وخيال مفتن فى رسم صورة فنية جميلة معبرة عن هذا الحب الشامخ الابى •

يقول ناجي مخاطبا حبيبته :

لست أنســاك وقد أعريتنى   بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح فى سمائى وأنا   لك أعلو فكأنى محض روح
يالهــا من قمم كنــابها   نتــلاقى وبسرينا نبــوح
نستشف الغيب من أبراجها   ونرى الناس ظلالا فى السفوح

فكل لفظة من ألفاظ هــذا المقطع لها جرس خاص ورنين موسيقى ، يحمل معنى الرفعة والسمو واللوعة والشجن ، وهو ما تميز به حب ناجي كما ينطق به هذا المقطع من قصيدته .

* * *

٦ ــ الوحدة الفنية فى القصيدة :

الوحدة العضوية التى نادى بها النقد الأدبى الحديث بوجوب تحققها فى القصيدة الغنائية الحديثة ، وعاب على شعرنا العربى القديم وما جرى على منهجه من الشعر الحديث خلوه من هذه الوحدة العضوية ــ لا يمكننا على الاطلاق أن نحكم بوجودها فى قصيدة ناجي هــذه ، تلك التى صب معانيها فى قالب مقطعى ، يتكون كل مقطع فيه من أربعة أبيات ، تخالف فى رويها ما قبلها وما بعدها ــ كما رأينا ــ ولا يمكننا كذلك أن نجزم بأن الشاعر صب دفقات شعوره فى ترابط فكرى منسجم ، بحيث تسلمنا كل فكرة عبر عنها فى مقطع شعرى الى فكرة تالية متآخية مترابطة ، بحيث لو قدمنا هذه الفكرة على سابقتها انفرط العقد المنطقى المتآلف فى تآخ والترابط فى انسجام ؛ لا يمكننا أن نذهب الى ذلك ، وان لم ننف تحقق الوحــدة الفنية فى القصيدة جمة عن الترابط الشعورى والعاطفى فيها : اذن فوحدة القصيدة هنا تقوم على وحدة المشــاعر ووحدة الأحاسيس ووحدة الجو النفسى المحيط بالشاعر ، والسر فى عدم توافر الوحــدة العضوية التى ألح العضويون من نقادنا المحدثين

على حتمية تحققها فى القصيدة الحديثة أن « ناجى » ينتمى الى شعراء المذهب الرومانسى الذى عنى بالذات ومشاعرها والطبيعة ومفاتنها تلك التى يتغنى بها الشعراء ويلتمسون اللذة والجمال فى مسارحها حتى ينعموا بالحرية التى حرموها ويحسوا بذاتيتهم التى طالما افتقدوها[٥].

وعلى الرغم من قيام هـذا المذهب الرومانسى على أنقاض المذهب الكلاسيكى ، فان وحدة القصيدة عند شعرائه ظلت كما كانت عند شعراء المدرسة الكلاسيكية ، تعتمد على قدر من الترابط الذى يصحح وشائج الفكرة الى جانب الفكرة والخاطرة مع الخاطرة بالصورة التى تتوارد فيها الخواطر والصور فى عقول الناس لأدنى ملابسة»[٦] .



---

(٥) راجع : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٦٨

(٦) المرجع نفسه ص ٦٨ ، ٦٩ .

ـ ناجى ومذهبه الأدبى :

ولد ابراهيم ناجى فى مدينــة القــاهرة فى ١٨٩٨/١٢/٣١ م لأبوين متوسطى اليسار ، وورث عن أبيه حب العلم والدأب على القراءة وحب اللغات فأتقن العربية والانجليزية والفرنسية •

التحق ناجى بالمدرسة الابتدائية وشدته القراءة منــذ صغره ، فكان يطالع فى مكتبة والده ما تقع عليه عيناه من كتب فى الأدب الذى شغف به وبقراءته منــذ صغره ، وبعــد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية التحق بكلية الطب وتخرج فيها طبيبا ، ولكن دراسته العلمية لم تصرفه عن الأدب بل ظل يتعشقه ، وراح يقرض الشعر على طراز غير مألوف بعد أن قطع شوطا فى محاكاة الشعراء القدامى الذين قرأهم وتأثرهم فى مطلع حياته الأدبية ، وقد بدأ ناجى حياته الأدبية يتزود من شعر مدرسة الاحياء والبعث وينسج على غرار شعرائها ، ثم شده شعر مطران وأعجب بوجدانيته فيه ، وقاده ذلك الى أن ينهل من المعين الغربى الذى نهل منه مطران : فأقبل على شــعر المذهب الرومانسى الغربى الذى كان يتفق مع هواه وأحلامه بالحياة وبالحب •

وأعجب ناجى بهذا المذهب الرومانسى الذى يقوم على تصوير خلجات النفس ازاء الحب والطبيعة ، دون عنايته بتصوير العواطف القومية والاجتماعية وغيرها مما تمتلىء به حياة الناس من حولهم ، وربما كان ناجى هو الشاعر الوحيد بين شعرائنا المعاصرين ، الذى نظر الى الشعر على أنه تعبير عن وجدان صاحبه ، وتصوير لهمومه وأشجانه ومشكلاته الذاتية دون النظر الى تعبيره عن الوجدان الجماعى ــ كما فعل كثير من معاصريه ــ •

ولعل معرفة ناجى بآداب الفرنسيين وقراءة آثارهم فى وقت

مبكر من حياته هى التى هيأت له ذلك النزع فى شعره الذى ظل ينميه طوال حياته الأولية .

وشخصية ناجى واضحة فى شعره تمام الوضوح بجميع ملامحها العاطفية وقسماتها الوجدانية ، وهى شخصية شاعر جريح يئن دائما ويشكو اغلال سعادته منه بصورة محزونة . وفى دواوينه الأربعة التى خلفها لا يكاد يخرج فيها عن تصوير هذه المعانى التى أوقف شعره عليها ، وهذه الدواوين هى : وراء الغمام ، ليالى القاهرة ، معبد الليل ، الطائر الجريح .

وقد نوع ناجى فى بناء قصيده وموسيقاه فنظم الرباعى والمثنوى كما نظم فى قالب الشعر العمودى . وأتى فى شعره بتعابير وصور جديدة كان فيها متأثرا بشعراء المذهب الرمزى الفرنسى كبودلير وغيره .

وناجى يمثل فى شعره جماعة أبولو التى انضم اليها منذ نشأتها وعمل وكيلا لها مع مؤسسها — أحمد زكى أبو شادى ونادى معه بالدعوه الى أن ينفلت الشعر من قيوده ، بحيث يكون شعرا وجدانيا خالصا يترجم عن حياة قائله ويصور ذاته ووجدانه .

وبعد أن انضم الى جماعة أبولو التى أسست ١٩٣٢ وجد جوا أدبيا يرضى طموحه وتطلعاته ، فظل ينشر فى مجلتها شعره الوجدانى الذى جاشت به عاطفته ، ولما هاجر أبو شادى الى أمريكا وانتهت أبولو بهجرته ، لم يتوقف ناجى عن نشاطه الأدبى ، بل زاد حنينه الى الشعر والأدب من جديد فألف « رابطة الأدب » بالاشتراك مع اخوان له ، وانشأ مجلة « حكيم البيت » .

كما أسهم فى فن القصة ترجمة وتأليفا وترجم أهازيج شكسبير وشعر بودلير وبعض المسرحيات ومن أشهر ترجمته « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى .

كل هـذه الأعمال وهو طبيب يتدرج فى سلك الوظيفة حتى رقى الى رئيس القسم الطبى بوزارة الأوقاف .

وقد توفى ناجى فى مارس ١٩٥٣ م .

ومن نماذج شعره قوله من قصيدة ـ العودة ـ :

رفرف القلب بجنبى كالذبيح   وأنا أهتف : ياقلب اتئـد
فيجيب الدمع والماضى الجريح   لم عدنا ؟ ليت أنا لم نعـد
لم عدنا ؟ أو لم نطو الغـرام   وفرغنـا من حنـين وألـم
ورضينا بسـكون وسلام   وانتهينا لفـراغ كالعـدم

ومنه قوله من قصيدة ـ خواطر الغروب :

قلت للبحر اذ وقفت مساء   كم أطلت الوقوف والاصغاء
وجعلت النسـيم زادا لروحى   وشربت الظلال والأضـواء
وكأن الألوان مختلفـات   جلت منك روضـة غناء
من بى عطرها فأسكر نفسى   وسرى فى جوانحى كيف شاء

* * *

٧ — ميخائيل نعيمة — وقصيدته — النهر المتجمد :

- ١ -

هـو واحد من أدباء المهجر وشـعرائه ونقاده المبـدعين ، ولد فى لبنان عام ١٨٨٩ م ، ثم التحق بمدرسة روسية كانت قد أنشئت حديثا فى بلدته ، ثم اختير لاكمال تعليمه فى دار المعلمين الروسـية فى مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم سافر فى بعثة دراسية الى روسـيا على نفقة الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسـطينية ، وطالع الأدب الروسى باهتمام وتأثر به .

وعاد ميخائيل نعيمه الى لبنان ، ومنها الى ولاية واشنطن ، حيث والى دراسته فى احدى مدنها وحصل على اجازه فى الحقوق واجازة آخرى فى الأدب عام ١٩١٦ ؛ وخدم فى الجيش الأمريكى حيث عمـل فى صفوف القتال فى فرنسا ، وقد كره الحرب وندد بها طوال حياته .

ثم عاد الى الولايات المتحـدة ، واشتغل بالتجـارة ، والأدب ، وكتب فى مجلة « الفنون » — التى كانت تصدر فى نيويورك بالعربية — فصولا فى الأدب والنقد ، وفى نيويورك اتصل بجبران ، ولمـا كونت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ ، كان جبران رئيسا لها ، ونعيمة مستشارا لهـا ، ومن أعضائها ايليا أبو ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وعبد المسيح حداد .

وسجل نعيمه فى صدر قانون الرابطة « ان هذه الروح الجديدة التى ترمى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار فى جميل الأساليب والمعانى ، لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم وركن الغد » .

وفى عام ١٩٣٢ عاد ميخائيل نعيمة الى وطنه لبنان ، حيث عكف على الاطلاع والكتـابة ونظم القصـائد . ويعـد كتابه « الغربال »

من أمهات كتب النقد والدعوة الى التجديد ، وقد كتب العقاد مقدمة طبعته الأولى عام ١٩٢٣ ، ولنعيمة ديوان « همس الجفون » .

ومن كتبه « زاد المعاد » وجبران خليل جبران ، وكرم على درب ، وفى مهب الريح ، وصوت العالم والمراحل ، وغيرها من المؤلفات التى يعد نعيمة بها قمة فى الأدب المهجرى ، وعلما شامخا فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث .

وقد قيل عنه : « نعيمة هو أحد رواد ثورة التجديد فى الأدب العربى الحديث ، زعيم الحركة المهجرية فى تحرير اللغة ونقلها من الجمود الى حياة نشطة ، ينبض فيها الأدب بالأفكار والمعانى ، ولا يئن تحت ثقل ما يرتديه من الأزياء اللغوية .

مذهبه النقدى الجديد فى كتابه « الغربال » الذى صدر عام ١٩٢٣ . لا زالت له جدته ، ولا يزال يؤثر فى النقاد والمفكرين »(١) .

- ٢ -

ومن نماذج شعر نعيمة قوله :

١ — أخى ان ضج بعد الحرب غربى بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا ، وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت لمن دانا

بل أركع صامتا مثلى بقلب خاشع دام

لنبكى حظ موتانا(٢)

---

(١) راجع : قصة الأدب المهجرى ٧٨ وما بعدها د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) ، (٣) ، (٤) المرجع السابق ص ٧٧ ، ٧٨

٢ ــ ومن قصيدته « الطريق » وهى قصيدة مملوءة بالحيرة ، يقول:

نحن يا ابنى عسكر تد تاه فى قفر سحيق

نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق ؟

فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثر

نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجر

وسنبقى نفحص الآثار من هذا وذاك

ريثما ندرك أن الدرب فينا لا هناك

وسنبقى فى انتقال وشقاء وعذاب

وصعود وهبوط وذهاب وإياب

وسنبقى نهجع الليل وفى الصبح نفيق

ريثما نلقى حنانا ، ريثما نلقى الطريق (٣)

٣ ــ ويقول من قصيدة أخرى له :

ذمك الأيام لا ينفعــــــك فهى لا أذن لهــا تســمعك

لا ولا عــين نـــرى عقـــربا فى دياجـــير الأسى تلسـعك

لا ولا قلب يـــــرق وان جف من طــول البــكا مد معك

عنـــدها ســيان يا صــاحبى أزهرت أم أقفرت أربعــــك

ذمك الأيــام لا ينفعــك انما الأيام لا تســــمعك

فهى منــك الظــل يا صاحبى عجبــا ظاك كم يخدعــك (٤) .

٤ ــ ومن قصيدته « لست أخشى » يقول :

ســــقف بيتى حـــديد ركـــن بيـــتى حجـــر

فاعصــــفى يا ريـــاح وانتحب يا شـــــجر

واسبحي يا غيوم		واهطلي بالمطر
واقصفي يا رعود		لست أخشى خطر
سقف بيتي حديد		ركن بيتي حجر
من سراجي الضئيل		أستمد البصر
كلما الليل طال		والظلام انتشر
واذا ما الفجر مات		والنهار انتحر
فاختفي يا نجوم		وانطفئ يا قمر

٥ — ومن قصيدته « هل من الأمواج جئت » يقول نعيمة :

ان رأيت البحر يطغى الموج فيه ويثور
أو سمعت البحر يبكى عند أقدام الصخور
ترقبى الموج الى أن يحبس الموج هديره
وتناجى البحر حتى يسمع البحر زفيره
راجعا منك اليه
هل من الأمواج جئت ؟
ان سمعت الرعد يدوى بين طيات الغمام
أو رأيت البرق يفرى سيفه جيش الظلام
ترصدى البرق الى أن تخطفى منه لظاه
ويكف الرعد لكن تاركا فيك صداه
هل من البرق انفصلت ؟
أم مع الرعد انحدرت ؟
.... الخ

---

(٥) ، (٦) المرجع السابق ص ٨٩ ، ٩٠.

وثورة ميخائيل نعيمة على الشعر التقليدى جعلته يبتدع القوافى المتنوعة ذات الوقع الموسيقى والتى كانت دفعا للشعر العربى الحديث •

ومع هذا فان نعيمة مجدد فى الشعر الحديث ، حيث خرج على الأوزان التقليدية فى الشعر ؛ وكان أحيانا يتقيد بالقافية فى كل بيتين وليس فى القصيدة كلها ، وقد أدخل كلمات جديدة فى قصائده ، واتخذ موضوعاته مما له صلة بالحياة مع مراعاة وحدة القصيدة •

وقد ثار نعيمة على قيود اللغة والمتحذلقين فيها ، قال عن القصد من الأدب انه « الافصاح عن عوامل الحياة كما تتناوب من أفكار وعواطف ، وان اللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة ، اهتدت اليها البشرية للافصاح عن أفكارها وعواطفها ، وان للأفكار والعواطف كيانا مستقلا ليس للغة •

فهى أولا واللغة ثانيا ، ان كل القواميس وكتب الصرف والنحو فى العالم لم تحدث ثورة ولا أوجدت يوما أمة ، لكن الفكر والعاطفة يجددان العالم فى كل يوم » •

وقد أطلق الدكتور مندور على شعر نعيمة « الشعر المهموس » لأنه يقع فى النفس موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس ، يؤنس النفس ويشعرها بالواجب الوطنى همسا دون خطابة •

وكلمات الهمس فى رأى مندور هى « احساس بالأدب المصنوع من الحياة كأنه قطعة منها » وهذا رأيه فى غالبية شعر المهجرين •

وسوف نتناول بالدرس والتحليل قصيدة من شعر ميخائيل نعيمة هى قصيدة « النهر المتجمد » لنتبين مظاهر التجديد الذى أدخله نعيمة على شعرنا الحديث من خلالها •

* * *

— قصيدة النهر المتجمد —

يقول نعيمة :

يانهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخدير
أم قد هرمت وخار عزمك ، فانثنيت عن المسير
بالأمس كنت مرنما بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
واليوم قد هبطت عليك سكينة اللحد العميق
بالأمس كنت اذا سمعت تنهدى وتوجعى
تبكى ، وها أبكى أنا وحدى ولا تبكى معى
ماذا جرى بعدما قد كنت تهزج فى الصباح
هل أجمدتك كآبتى ، وسمعت ندبى والنواح
ما هذه الأكفان أم هذى قيود من جليـد
قد كبلتك وذللتك بها يد البرد الشـديد
ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال
يجثو كئيبا كلما مرت به ريح الشـمال
تأتيه أسراب من الغربان تنعق فى الفضـا
فكأنها ترثى شبابا من حياتك قد مضى
لكن سينصرف الشـتا وتعود أيام الربيع
فتفك جسمك من عقال مكنته يد الصقيع

وتكر موجتك النقية حرة نحو البحار
حبلى بأسرار البقا ، تملى بأنوار النهار
وتعود تبسم اذ يلاطف وجهك الصافى النسيم
وتعود تسبح فى مياهك أنجم الليل البهيم
قد كان لى يا نهر قلب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك فيه أهـــواء وآمال تموج
قد كان يضحى غير ما يمسى ولا يشكو الملـــل
واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل
يا نهر ذا قلبى أراه كما أراك مكبلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا •

القصيدة ــ تحليل ودراسة ونقـــد •

أولا : المضمون والأفكار :

تعد هذه القصيدة من شعر الوجدان الذاتى الذى يعنى بتصوير مشاعر ذويه وتجسيم عواطفهم ، وهى فوق ذلك رومانسية الطـــابع تمثل خصائص المذهب الرومانسى فى مضمونه وأسلوبه وصـــياغته وصوره وموسيقاه ، وهذا المذهب كما تعلم مضاد للكلاسيكية ، وقد قام على أنقاضها منذ أواخر القرن الثامن عشر فى أوربا ، وهو مذهب ابتداعى تجديدى تحررى ، يقوم على الفلسفة العاطفية ، ويعتـــد بالعاطفة والقلب لا العقل والفكر ، وينشد الجمال لا الحقيقة ، وينتصر للفرد لا للمجتمع •

وخصائص هذا المذهب الأدبى : اتجاهه الى التجربة الباطنية ، واستيحاؤه التجارب النفسية لا الخارجية ، واصطباغه بالذاتية والفردية، وانطباعه بالتأملية والروح الغيبى والصوفى ، وعدم التعقل ، واطلاق العنان لشرود العاطفه وجموح الخيال ، كما يتسم بالهروب من دنيا الناس الى الطبيعة والاندماج فيها ،

وأدب هذا المذهب تجلله الكآبة ، ويسوده التشاؤم والقلق ، كما أنه يهتم بالجماليات ويميل الى الابتكار ويتسم بالتحرر الأسلوبى(١) .

ولقد تأثر أدباؤنا العرب كثيرا بهذا المذهب الرومانسى الغربى ، وظهر هذا التأثر فى مضامين أدبهم وأشكالها واتجاهاتها كالذى نراه عند مطران ومدرسه الديوان وجماعة أبولو .

وأدباء المهجر الذين جنحوا الى التجديد وتجاوبوا معه لا سيما أدباء المهجر الشمالى ومنهم — ميخائيل نعيمة — صاحب هذا النص الرومانسى فى مضمونه وقالبه وصوره وموسيقاه وتجربته .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بسؤال النهر عن سر الكآبة التى جللته والأسى الذى غشيه والهم الذى انتابه ، وكأنه كان يحس بهذه المشاعر كلها ، تلك التى خلعها على النهر المتجمد ، الذى نضب ماؤه وتوقف جريانه وانقطع خريره ، واكتسى بحلة كئيبة عابسة بعد أن متهللا فرحا منطلقا .

ثم يذكر النهر بأنه بأنه كان بالأمس مرنما يشدو بين الحدائق الغناء والزهور الجميلة بلحن عذب ينم عن انطلاق ومرح ، وقد كان الشاعر يأتيه باكيا فيرده مسرورا ضاحكا ، ويشاطره آلامه وأحزانه ، بل ويتجاوب معه تجاوبا صادقا يبعده عن همومه وينأى به عن أحزانه .

---

(١) الأدب المقارن ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ د / حسن جاد .

ثم يتسائل الشاعر فى كآبة وجو من الأسى والضيق . ماذا جرى لك أيها النهر حتى صرت جامدا . ناضبا وصامتا كئيبا ، بعد أن كنت تهزج فى الصباح بأهازيج الأمل والمرح والبشر ! هل أجمدتك كآبتى وسمعت ندبى ونواحى فطفقت تشاركنى ذلك الندب وتقاسمنى هذا العويل والنواح ؟

أو أن النوائب التى أصابت الشاعر وأخرسته عن النطق وكبلته عن المسير ، أصابتك أيها النهر وكبلتك وأخرستك ؛ ويمضى الشاعر فى وصف الصور الكئيبة الحزينة التى أحاطت بالنهر ، وكأنها هى الأخرى قد اصابها ما أصاب النهر فجزعت جزعا لا مزيد عليه وكيف لا ؛ وحياة النهر حياة لها ، وبهجته ومرحه مرتع لها .

فشجر الصفصاف قد تناثرت أوراقه بعد أن ذبلت ويبست ، وانطفأ جماله بعد أن كان يشع من أشجاره ، وأسراب الغربان هبت مفزوعة على هذا الشجر الاخضر الذى كان يكسو جوانب النهر وشطآنه ويؤلف مع مياهه منظرا فاتنا تشدو له الطيور ، فأتت الغربان تنعق فى الفضاء ترثى شباب حياة النهر الذى مضى فى أصوات كئيبة مزعجة .

ثم يغريه بالربيع الذى ستعود أيامه باسمة مشرقة بعد أن عبست به أيام الشتاء ولياليه ببردها القارس ورعدها الشديد وعواصفها المدمرة، سيجىء الربيع ليفك قيود النهر ، ويعيد جريانه ويرد اليه حريته التى حرمها وابتسامته التى فقدها ، حيث يزدهر الصفصاف من حوله ، وتغرد الطيور ، ويلاطفه النسيم .

ويوازن الشاعر فى نهاية قصيدته بينه وبين النهر ، فقد كان قلبه يموج بالأمل كأمواج النهر ، ويضحك للحياة كضحكات المروج ، ولكنه الآن كالنهر تتجمد فيه أمواج الأمل ، غير أن النهر سينشط من عقاله ، أما قلبه هو فسيظل حزينا لا يعود الى ابتهاجه ، هذه هى الأفكار التى تناولتها القصيدة ، وهى كما ترى تحكى تجربة نفسية للشاعر ، وتصور

جو الأسى النابع من أعماقه ، وقد انعكست أحاسيس الشاعـــر على الطبيعة من حوله حيث تجاوبت معه وشاركته آلامه ، وهذه هي الأفكار الرومانسيين في كثير من موضوعات شعرهم •

٢ ــ الصور الشعرية :

من خصائص التصوير الشعرى عند الرومانتيكيين أن الشـــاعر يستعين على جلاء الصور في الشعر بالطبيعة ومناظرها ، على أن يراعى صنوف التشابه التي تربط ما بين صور الطبيعة وجوهر الأفكار والمشاعر ، بحيث لا يقف هذا التشابه عند حدود المظاهر الحسية •

وفى هذا رجوع إلى محاكاة الطبيعة في اخراج الأفكار الذاتية صورا طبيعية ، ولكن على أن يحتفظ الفنان أو الشاعر بأصالته في البحث عن الصور الطبيعية التي تمثل أفكاره ، وتربط ما بينها عضويا حـــول موضوع واحـــد •

وهذه الصور عند الرومانتيكيين تمثل مشاعر وأفكارا ذاتية . اذ يخلط الرومانتيكيون مشاعرهم بالصور الشعرية ، فيناظرون بين الطبيعة وحالاتهم النفسية ، ويرون في الأشياء أشخاصا تنكر وتأسى وتشاركهم عواطفهم ، وينفرون من المناظر الطبيعية التي تبدو كأنها لا تشاركهم شعورهم • وفي أشعارهم تبدو ذاتهم محور تصويرهم » [٢] •

وهذه القصيدة التي بين أيدينا حافلة بعنصر التصوير الشعرى الذى جسد أفكار الشاعر الذاتية تجسيدا حيا ، فمما لا شك فيه أن الشاعر لم يحفل بالنهر ولم يهتز له ، ولكنه حفل بذاته المكتئبة وما خالطها من جو الأسى والكآبة وراح يعكس هذه المشاعر ويخلع تلك الأحاسيس على النهر الذى تخيل أنه أصيب بما أصيب به الشاعر ، انطلاقا من

---

(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٣٩٢ د/محمد غنيمى هلال •

النزعة الرومانتيكيه فى الارتماء فى أحضان الطبيعة وفرارهم اليهـا هروبا من عالم الواقع الذى ضاق بتمردهم وعجز عن أن يحقق لهم أمانيهم •

ويمكنك أن تنعم النظر فى القصيدة من أولها حتى نهايتها ، لتتعرف ، على مدى اعتماد الشاعر فى نقل تجربته النفسية والذاتية الى وجدان قارئه معتمدا على الصور الجزئية ـ المجازات والتشبيهات ـ المتلاحقة ، والتى تكون فى مجموعها صورة كلية جسدت كآبة الشاعر وجسمتها •

وتذوق معى المقطع الأول من القصيدة ، الذى ناجى فيه الشاعر النهر مناجاة صديق حميم هرع الى صديقه يسأله عن علته وما دهاه من كروب ، ويأسى لهذه العلة التى أصابت صديقه ويستفسر فى لهفة وفى دهشة عن عواملها وأسبابها ، ثم يأسف على حاله التى آل اليها بعد ان كان فى نعيم وفى رغد ، وهو انما فعل ما فعـل اثقته فى صديقه الذى يسر لسروره ويحزن لمصابه ويشاطره آلامه ويقاسمه همومه •

وهذا ما اعتمد عليه الشاعر هنا ، حيث راح يناجى النهر مستفهما منه ـ هل نضبت مياهه فانقطع عن الخرير !

أم أنه قد هرم وشاخ فخار عزمه وانهدت قواه فعجز عن المسير !

كنت بالأمس تترنم وتهزج بأغانى المرح وأناشيد السرور متنقلا بين الحدائق شاديا بين الزهور • وهذه الصورة تنقلك الى الجو النفسى الذى كان يحيط بالشاعر ، وترسم لك مشاعر صاحبها حيث تجهم به يومه بعد أن ابتسم له أمسه • فراح ينقل اليك أحاسيسه فى صور متلاحقة تعبر عن جو الأسى الذى يخالطه من تنهد وتوجع وأنين وهذه الصور الحزينة رسمها الشاعر للنهر المتجمد الذى يحكى تجمد الشاعر فى آلامه فى بقية مقاطع القصيدة •

٣ ــ الوحــــدة الفنية فى القصيدة :

ومن السمات الفنية لهذه القصيدة أنها تعبير عن تجربة شعرية لدى الشاعر ، تحولت الى تجربة فنية ، توافر لها الصدق الفنى ، وتحققت فيها وحدة الموضوع والوحدة العضوية ٠

ونعنى وحدة الموضوع ألا يتناول الشاعر فى قصيدته أكثر من غرض شعرى واحد ، بحيث لا تجمع القصيدة بين الغزل والمدح أو الفخر مثلا ــ كما كانت القصيدة العربية القديمة ــ التى اعتمدت وحدتهــا الفنية على الرباط الذهنى والنفسى لدى الشاعر ، وبذلك جمعت أكثر من غرض شعرى واحد ، مما أدى الى تفكك وحدتها وعرضها لمواجهة النقد العنيف فى عصرنا الحديث عند كثير من النقاد ٠

ونعنى بالوحدة العضوية أن تكون القصيدة عملا متكاملا ، وبنية عضوية حية ، تترابط صورها ، وتتفاعل عناصرها تفاعل الأعضاء المختلفة فى الجسم الحى ٠

وقد قاس العقاد هذه الوحدة بالأبيات ونظامها وترتيبها ٠

فالبنية الحية للعمل الفنى لا تقبل تغيرا ففى وضع الأبيـــــات ، ولا حذفا منها ، ولا زيادة فيها ، بحيث لو حدث شىء من هذا اختلت وحدة القصيدة الفنية ، وليست كذلك القصيدة العربية القديمة التى لو قدمت فيها بيتا على بيت أو أخرته أو حذفته ، لم تشعر باختــلال فيها ، لأن الوحده فيها محصورة فى البيت الواحد ٠

وقصيدة ميخائيل نعيمة هذه : توافرت فيها الوحده الموضوعية والعضوية والشعورية والفنية ، فهى ــ كما ترى ــ عمل فنى متكامل ، له أوله ، وله آخره ٠

موضوعها واحد أتت جزئياته فى تسلسل منطقى ، بحيث ينمو كل بيت نموا عضويا ، فلا نستطيع تقديمه على غيره ولا تأخيره عنـــه ، ولا حذفه ، والا ظهرت القصيدة مشوهة مبتورة ، ولم تسر الوحدة فيها سيرها •

كذا نلاحظ أن الوحدة النفسية والفنية فيها متكاملة ، فجو الاسى يسودها كلها ويشيع فيها •

والأسلوب يوائم التجربة ويواكبها بموسيقاه الهادئة المـــلائمة لجو الأسى ، والصور الحزينة التى يرسمها الشاعر للنهر فى جموده تعطى جوا تاسيا منسجما •

والانتقال من بيت الى بيت فى القصيدة انتقال طبيعى ، ينسق مع الجو الشعورى العام للقصيدة ، بحيث يصل القارىء الى آخـــر بيت فيها ، وقد أحس أن الشاعر قد أفرغ تجربته كلها فى جو شعورى واحد لا فراغ فيه ولا ذبذبة [٢] •

---

(٢) راجع شعر المهجر د/كمال نشأت ــ ص ٧٩ وما بعدها ، وراجع فى التعرف على الشـــاعر : ١ ــ أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ــ جورج صيدح ــ وقصة الأدب المهجرى د/خفاجى وغيرهما •

القسم الثاني

منتخبات من النثر

---

١ — « الرسالة البكرية » لحفنى ناصف ١٨٥٥ م — ١٩١٩ م

النــــص :

كتب حفنى ناصف رسالة الى السيد / محمد توفيق البكرى — فى العتاب منها قوله :

« .. زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى الى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بعد — والله — عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه ، فقيل لى : انه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى موكبه ، وجلال محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهيمنا بكماله ، فمر يتعرف على وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومر على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى ، أننى فى دارى ، وأظهر للناس أن شدة الألفة تسقط الكلفة ، ومر السيد من أمامى بعد ذلك ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يتدارك ما فات ، وأغرب من ذلك أنه استخلص لنفسه أربعة ، ودعاهم الى الحجرة فدخلوا معه ، فلم يبق الا القيام ، والامساك عن الكلام .

تمرون الديـــار ولم تعوجـــوا ⠀⠀ كلامكمو على اذن حــــــرام

ولا أدعى أننى أوازى السيد — صانه الله — فى علو حسبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى منصبه ورتبه ، وانما أقول : ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود

الاواسى على مائدة الافطار ، وبين من يزوره للسلام وتأييد جامعـــة الاســـلام [1] ... الخ » .

— ٢ —

— تحليل ونقــد —

هذا النموذج الأدبى من النماذج التى عرفتها آدابنا العربية القديمة وهو — أدب الرسائل — والرسائل نوعان :

رسائل ديوانية ، وهى ما تصدر عن الدواوين أو ترد اليها خاصة بشئون الدولة وصوالحها .

ورسائل اخوانية ، وهى ما يدور بين الأفراد فى تعزية أو تهنئة أو عتاب وشوق وغيرها وهى ادخل فى باب الأدب أما الرسائل الديوانية فظلت فى عصور الضعف والانحطاط متخلفة هامدة — شأن الآداب العربية جميعها — الى أن دبت روح النهضة الحديثة فى الآداب الحديثة بفعل بعث القديم واحيائه والسير فى دربه والنســج على منواله ، وكان حظ الرسائل الديوانية من هــذا البعث والاحياء عظيما ، حيث نهضت وتطورت على يد الديوانى الكبير عبد الله فكرى .

على أن هذا التطور الذى أصابته الرسالة الديوانية لم يتمثــل فى التخلص من قيود الصنعة والبديع والسجع ، وانما تمثل فى النهوض بأسلوبها من الضعف، والركاكة والابتذال والعجمة والخطأ اللغوى وما الى ذلك مما جعل أسلوب هذه الرسائل ركيكا هابطا حتى فى عصر محمد على وما تلاه الى أن نهض به عبد الله فكرى — كما قلنا سابقا — .

---

(١) نثر حفنى ناصف ص ٨ وما بعدها ، وراجع كتابنا — تطور النثر الفنى فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ١٢٢ وما بعدها .

أما الرسائل الاخوانية ، التى كان يبعث بها أديب الى أديب ، والتى تعد مظهرا من مظاهر التجديد الأسلوبى والتأنق التعبيرى ، والتفنن فى ضروب الخيال ، فانها قد تطورت فى أسلوبها كما تطورت فى أغراضها ومضامينها ، حتى أحلت محل الشعر عند بعض الكتاب كعبد الله فكرى وعبد الله النديم وحفنى ناصف وغيرهم من كتاب القرن الماضى وهذا القرن .

كقول عبد الله فكرى فى رسالة وصفية ــ اخوانية ــ بعث بها من الأستانة الى صديق له يصف يوما اشتد فيه البرد وغزر المطر وكثف الضباب منها قوله :

« كتبت اليك والأمطار ساجمة بطلها ووبلها ، وعساكر البرد والبرد هاجمة بخيلها ورجلها ، والسماء متلفعة بأذيال السحاب ، وكأن الشمس خافت من الطل فتوارت بالحجاب ، والجــو مسكى الرداء ، عنبرى الأرجاء ، وكأنه وعليه ثوب الغيم مزورة قد وجل من صولة البرد فلبس فروة السمور ، وأناخ الغمام على الأفق بكلاكله ، وهز من البرق بيض مناصله ، ونشر فى الجو طرائق مطارفه، وجاد على الأرض بتليده وطارفه ، وثقل على كاهل الهواء ، كالطير بل جناحه بالمــاء ، وقرب حتى كاد يمسك باليدين ، ويعتصر بالراحتين ... » الخ .

ومثل هذا النموذج الأدبى يطلعنا على مدى نهضة النثر الفنــى فى العصر الحديث ، حيث اضطلع فى بعض فنونه وألوانه بمهمة الشعر وغايته : وانسمت نماذجه بما يتسم به الشعر فى كثير من عناصره الفنية ، من انتقاء الألفاظ وجمالها ، وقوة نفاذها وتأثيرها ، ومن التوسع فى ضروب المجازات والتفنن فى الأخيلة ، بالاضافة الى عذوبــة موسيقاه وروعتها ، هذا الى جانب احتفاله بالصنعة غير المتكلفة فى كثير من مواطنه .

وهذا اللون من النثر الذى بعثت فيه الحياة من جديد ، قد أعاد الى الأذهان ما انتظم من كتابات السابقين كابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان ومن على طريقتهم من الكتاب السابقين الذين نهضوا بالنثر الفنى فى عصور ازدهاره نهوضا فائقا .

ويعد احياء للكتابة الفنية القديمة نهض به كتاب عصر النهضة الحديث ، كما أحيى الشعر وبعث على يد البارودى ومن تمذهب بمذهبه واضاف اليه .

ومما هو معلوم أن بعث القديم واحياءه هو الخطوة الأولى فى تطور النثر الفنى وتجديده ، بل انه يعد أحد وسائل التجديد واقواها بالنسبة للفنون الأدبية كافة .

— ٣ —

والرسالة البكرية التى ذاعت وانتشرت بين الأدباء والكتاب آنذاك ، والتى قدمنا لها بهذه الدراسة الموجزة موضوعها — فى العتاب — .

ولقد كان هناك رباط وثيق بين كاتبها وبين من كتب له وهو السيد/ محمد توفيق البكرى نقيب الطرق الصوفية وصاحب المكانة المرموقة والأدب الرفيع .

وصدر هذه الرسالة الاخوانية يدلك على مدى الود الذى يكنه الكاتب للبكرى ، ويصور عاطفته المفعمة بحب الشيخ والولاء له ، كما يبين حرصه على زيارته وتشوقه الى مجالسته والاستماع اليه ، حتى اذا وجد منه ازورارا وانصرافا عن عليه هذا السلوك الذى قابل الود بالنفور والتشوق بالانصراف ، فعنف فى العتاب بل بالغ فى هذا العنف كما صور قوله : « ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والاذكار ، وشهود الأوانى على مائدة الافطار ، وبين من يزوره للسلام

وتأييد جامعة الاسلام » وفى هذه الفقرة يعرض الكاتب بما يدور فى ساحة البكرى من أغان وحلقات أذكار ، وما كان يقام فى بيته من موائد صفت أوانيها وتنوعت ألوانها ، ويصفه بأنه لم يحسن التمييز بين من كان يزور البكرى استجابة لهذا الهدف وتلبية لهذا المطلب وحده ، وبين من كان يزوره حبا له وتأييدا لجامعة الاسلام •

وهذه رسالة اخوانية جمع فيها حفنى ناصف بين اللين والعنف، — كما رأيت — •

وقد بنيت الرسالة على السجع الذى تفاوتت فقره بين الطول والقصر : وهو سجع غير متكلف ، وخفيف الوقع على الأذن ، وينهض أن يكون حجة بالغة يدلى بها أنصار السجع على علو منزلته بين أساليب الكلام [٢] » •

ويرى العقاد أن — حفنى ناصف — كان يتكلف فى نثره أكثر منه فى شعره ، وقد عقب على قطعة من نثر حفنى ناصف بقوله : « ••• وان يكن فارق بين النظم والنثر فهو قلة التكلف للتحسين والتنميق فى نظمه وكثرة المحسنات المتكلفة على جودة الصنعة فى نثره » [٣] •

والرسالة مليئة بضروب الخيال من تشبيه واستعارة — كما ترى — كقوله مشبها :

« ويعلم الله أن شوقى الى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده » •

وهذا تشبيه قريب المأتى فى تصوره سريع الادراك فى استنباطه والاحاطة به ، ولكنه يجسم العواطف على أى حال •

---

(٢) حفنى ناصف ص ١٤٣ لمحمود غنيم •
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٢٧

ومن الاستعارة فى النص قوله :

« ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار » .

وقوله : « شدة الألفة تسقط الكلفة » وهى استعارات مألوفة قريبة وأثرها فى تشخيص المعنى بين .

وأسلوب الرسالة قويم فصيح بعد عن الألفاظ المعجمية الموغلة فى التقعر ، حيث أتت عباراتها سهلة مع جزالتها وقوتها ، ولعل لموضوع الرسالة أثرا فى صياغتها وصورها ، حيث أتت الرسالة معبرة عن روح العتاب الذى استهدف الود والذى يناسبه الأسلوب الرقيق (٤) .

٢ ـ « حرية الفكر » للعقاد

« مصر بلد المحافظة والتخليد ، كل ما فيها باق على وتيرته متصل بين ماضيه وحاضره ، وكأنما كانت آلهتها فى رأى أهلها الأقدمين تأبى التجديد أو تعجز عنه فهى لهذا توصى القوم أن يحفظوا أجسادهم ألوف السنين لتعود اليها الحياة بعد حين بلا تجديد ولا تبديل !

فروح الحياة فيها لا تعرف الا جسدا واحدا تلبسه وتستبقيه الى يوم الرجعة اليه ولا يخطر للقوم أنها قادرة على انشاء جسد سواه وابتداع لباس غيره !

وهذا مثال المحافظة فى تصور الحياة وتقييد القوة المنشئة فى الوجود « بشكل » لا تتعداه ، وما الآطام المخلدة ولا القبور المصونة ولا الوراثة المفروضة فى العادات والأعمال والعبادات الا أمثلة أخرى لطبيعة المحافظة التى غبرت عليها بلاد النيل الذى يعود كما بدأ فى

---

(٤) راجع : الأسلوب ص ١١٣ وما بعدها للأستاذ/أحمد الشايب .

كل عام والرمال التى تحتفظ بكل وديعة تلقى اليها ، والسماء التى تحول الأزمنة والفصول ، وهى على عهدها لا تتبدل ولا تحول .

بهذا الخلق فى المصريين دامت المسيحية ودام الاسلام ، فلولا صلابة فى العقيدة وصبر على العذاب لعفى الرومان على المسيحية فى مصر ثم فى البلدان كافة ، ولولا وقفة مصر فى وجه الصليبيين لذهب الاسلام أو لانزوى بأهله فى ركن من الاركان الآسيوية التى يجهلها العمران ، بل لولا مصر فى القدم لما كانت الموسوية — ولا كانت المسيحية والمحمدية بعد ذلك — ما هى اليوم وما شهدها عليه آباؤنـا الأولون . فلمصر أثر خالد فى كل دين خالد ، وحصة باقية فى كل ما تخيل الناس به معنى البقـاء .

مصر الخلود هذه ما احوجها الى شىء من روح التجديد وما أفقرها الى عقيدة الخلق والاقتحام ، فان من الحسن المرغوب فيه أن يكون المرء ذا عقيدة يسكن اليها ويغار عليها ، ولكن ليس من الحسن أن تكون العقيدة غلا فى عنق « القوة الخالقة » تصورها لنا عاجزة عن انشاء جسد جديد او يعز عليها أن تتصور الحياة بغير هذا الجسد المحسوس !

ان أظهر مظاهر الخلق هو الانشاء والتجديد وليس هو المحافظة والجمود ، وما الحياة نفسها الا ثورة على « المحافظة والجمود »ونصرة للحرية على التقييد .

فليس أصلح للعقل المصرى فى هذه اليقظة التى يتيقظها الآن من الجرأة على التفكير الحر والقدرة على انتزاع المنازع المستقلة فى الرأى والاحساس ، وليس أحق بالترحيب من الكتب التى تفك العقول من أسر قديم لافضل له غير القدم ، أو تحرج به عن سنن موروث لاتحفظه الا سهولة العادة وصعوبة الحرية والابتداع (٥) .

---

(٥) ساعات بين الكتب ص ٨٩ وما بعدها .

حــول النــص

الـــكاتب :

كاتب هذا النص هو الأديب الكبير عباس محمود العقاد ـــ ١٨٨٩ ـــ ١٩٦٤ ٠

ولد فى أسوان لأسرة مصرية متوسطة ، وتعلم فى الكتاب ثم المدرسة الابتدائية التى تخرج فيها ١٩٠٣ ، ورحل عن بلدته وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولم يكمل دراسته فى المدارس والمعـاهد الرسمية ، ولكنه أكملها معتمداً على نفسه فى تحصيـل المعرفـــة والثقافة ٠

وقد جمع فى ثقافته بين المعارف العربية والأجنبية ، ويعد صاحب مدرسة فى الأدب والشعر والنقد والكتابة ، وعمل العقاد بالصـحافة فكتب فى كثير من الصحف والمجلات مقالاته فى السياسة والاجتماع وفى النقد والأدب،وكان يكتب فى جريدة البلاغ الوفدية،فنهض فيها بالمقالة السياسية مقتبسا كثيرا من آراء المفكرين والفلاسفة الغربيين وخاصـة فى مجال الحرية وحقوق الشعب السياسية ، وقد جمع كثيرا من مقالاته هذه وأمثالها فى كتب منها : « مطالعات فى الكتب والحياة » و « مراجعات فى الآداب والفنون » و « ساعات بين الكتب » و « الفصول » وهى تصور جهده الفنان الخصب الذى اضطلع به فى حياتنا الأدبية ، فقد نقل الينا كثيرا من الأفكار الأوروبية التى لم نكن نعرفها ، وسلط عليها من شخصيته الأدبية ما طبعها بطابعه الخاص ٠

وقد خلف العقاد للمكتبة الأدبية ألوانا شتى من المؤلفـات الخصبة القيمة التى تعد ثروة ضخمة فى الآثار العربية الحديثة ، والتى تدل

على نبوغ صاحبها وتفوقه فى ميدان الأدب وفنونه • ومن أهم آثاره :

١ — ديوان العقاد وهو مجموعة دواوينه الأربعة التى أصدرها مفرقة ثم جمعت، وطبعت فى ديوان واحد سنة ١٩٢٨ •

٢ — الديوان وهو جزء من الكتاب النقدى الذى أصدره هو وصاحبه المازنى ١٩٢١ ، وفيه نقد العقاد « شوقى » نقدا قاسيا •

٣ — شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى •

٤ — ابن الرومى حياته من شعره •

٥ — أبو نواس •

٦ — الفصول •

٧ — عقائد المفكرين فى القرن العشرين ••• الخ •

كما اتجه العقاد الى كتابة التراجم والسير فكتب فى « محمد » و « المسيح » عليهما السلام وفى أبى بكر الصديق وعمر وعلى •

ومن طريف كتبه « الله » ، كما كتب أيضا عن « ابليس » •

وله قصة « سارة » • كما كتب مقالات مختلفة فى صحف عديدة منها : البلاغ والمقتطف والهلال وغيرها •

وبلغ ما كتبه نحو ستين مؤلفا تمتاز كلها بحيوية التفكير وخصوبة العقل (٦) •

---

(٦) راجع : الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١٣٨ د/شوقى ضيف •

أفكار النص :

اذا أنعمنا النظر في هـذا النص الذي بين أيدينا ، والذي كتبه العقاد تنويها بكتاب « حرية الفكر وأبطالها في التاريخ » الذي أصدرته مجلة الهلال للأديب سلامة موسى نرى أن هـذا النص قد اشتمل على ثلاثة أفكار أساسية هي :

١ ــ مصر بلد المحافظة والتخليد •

٢ ــ أثر هـذه المحافظة في الحفاظ على الموروث من عقـائد وعادات وتقاليد •

٣ ــ حاجة مصر دائما الى التجديد والتفكير الحر وانتزاع المنازع المستقلة في الرأي والاحساس •

وكل فكرة من هـذه الأفكار مقرونة بالأدلة التي تثبت صحتها والبراهين التي تؤكد وجودها • ففي سبيل تأكيد الفكرة الأولى اتخذ العقاد من فكرة الحفاظ على أجساد الموتى في قبورهم الى أن تعـود الحياة اليهم بعد حين وتلبس روح الحياة ذلك الجسد الذي فارقته عند موتها ، اتخذ من هذا دليلا على أن القوم لم يخطر ببالهم تجديـد الجسد مرة ثانية ، أو ابتداع لباس غير الذي كفن فيه الميت مرة أخرى كذلك • كما ألح في التدليل على هـذه الفكرة بما أتبع با هـذا الكلام في قوله : « وما الأحكام المخلدة ولا القبور المدفونة • ولا الوراثة المفروضة في العادات والأعمـال والعبادات الا أمثلة أخرى لطبيعة المحافظة التي عبرت عليها بلا دالنيل •• الخ •

والفكرة الثانية متآخية تماما مع الفكرة الأولى فهي بمثابة التوضيح لها والتدليل على صحتها والتعميق لجزئياتها •

أما الفكرة الثالثة في النص فهي بمثابة النتيجة المستنبطة أو قل انها بمثابة الأثر المترتب على الفكرتين السابقتين ، فالمحافظة الدائمة

المتعصبة دليل على التخلف والجمود ، تخلف عن ركب الحضارة ومعايشة التقدم ، وجمود عن الحركة حيث تحسن الحركة .

ومن الوسائل المعينة على حرية الفكر وتجديده وبعث روح الحياة فيه الكتب التى تفك المعقول من أسر القديم والتقيد بقيوده والغرق فى أغلاله ، ولذا يرحب بهذه الكتب ويدعو الى البحث ، ويحمد لكتابها منزعهم الجديد فى دعوتهم الى حرية الفكر .

خصائص النص :

يتضح لنا من خلال هـذا النص ما امتاز به العقاد فى كتاباته وما لأسلوب هـذه الكتابة من خصائص وسمات تميزه عن غيره من أساليب الكتابة التى ظهرت فى أدبنا الحديث .

ومن أبرز سماته الفنية فى كتاباته :

١ ــ عمق المعنى الناجم عن عقله الخصب وثقافته العميقة التى تعددت روافدها ما بين عربية وأجنبية ، وقد تمثل هـذا العمق فى كل ما كتب العقاد فى ــ السياسة والأدب والفلسفة والنقد والاجتماع وتحليل الشخصيات وغيرها ــ فتراه يلح على الفكرة بتوليداته واستنباطاته ، ويحتاج القارىء لها الى تمهل وروية حتى يتعمق المعنى ويهتدى الى فهم الفكرة .

٢ ــ قوة اللفظ وجزالته ورصانة العبارة ودقتها ، اذ عرف العقاد كيف يصوغ عباراته وكيف يلائم بينها ، وكيف يبعد بها عن نبو الألفاظ وينأى بها عن الحشو الذى لا يقتضيه المعنى ولا يتطلبه الغرض .

٣ ــ الاقتصاد فى الزخرف والصنعة وغيرهما من وسائل التخييل والتصوير ، اذ عرف عنه أنه كان يعنى بالأفكار والمعانى ويحتشد لهما . ولم يحفل بالانشاء الذى يذهب بالفكرة أو يضعفها .

٤ ـ الاكثار من البراهين المنطقية التى تعزز فكرته وتعمقها ، والملاءمة بين هـذه البراهين والأدلة ملاءمة دقيقة .

واقرأ قوله مثلا فى هـذا النص هـذه الفقرة : « بهذا الخلق فى المصريين دامت المسيحية ودام الاسلام ، فلولا صلابة فى العقيدة وصبر على العذاب لعفى الرومان على المسيحية فى مصر تم فى البلدان كافة ، ولولا وقفة مصر فى وجـه الصليبيين لذهب الاسلام أو لانزوى بأهله فى ركن من الأركان الآسيوية التى يجهلها العمران » .

ثم أعد قراءتك مرة ثانية وثالثة فلن تجد لفظا نابيا أو عبـارة محشوة ، أو جملة مقحمة ، أو احتشاد التصنع ، أو تصيدا للون بيانى أو بديعى لم يتطلبه المعنى ، ولكنك تجد قدرة فائقة على الصياغة ودقة فى استعمال الألفاظ واستخدام العبارات التى تفى بالمعنى وتعبر عن الفكرة وحدها .

٥ ـ ومن أهـم ما يميز العقـاد فى كتاباته هو اعتزازه برأيه وتمسكه به ـ لا عن تعصب ومراء ـ ولكن عن اقتناع ويقين يؤيدهما ما يسوقه من براهين منطقية وأدلة دامغة . ويمثل هـذه الخاصة فى هذا النص مخالفته لصاحب الكتاب الذى أشاد به ـ كما أسلفنا ـ فى بعض آرائه بمثل قوله : « .. ولهذا نخالف المؤلف فيما كتب فى « شهوة التطور » اذ يقول : ... الخ .

وكقوله : « ثم نلاحظ عليه أنه يفرط أحيانا فى مطالبة الحرية بما لا طاقة لها به وذلك حيث يقول : « ثم أورد كلاما لسلامة موسى وعقب عليه بما يعبر عن مخالفته له فيه وتصحيحه له » .

٣ ــ الحاضنة : للدكتور / طــه حســين

— ١ —

النص

« عطف الله على هــذا اليتيم قلوبا ملئت حبا ، وفاضت حنانا ورحمة . قلما يظفر بمثلها المنعمون المترفون من أبناء الأغنياء ، وأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض •

هــذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة أجمال أوراك وقطعة من الغنم ، كانت حين أقبل اليتيم الى هــذه الارض فتاة فى ريعان الشباب ومبدأ الحياة ، لم تنس وطنها القديــم ولم تألف وطنها الجديد ، ولم تسل عن حريتها ولم تأنس الى رقها ، نفسها معلقة بين لونين من ألوان الحياة ، كان أحدهما صفوا كله ، وهو لون الحياة العزيزة فى بلد عزيز وبين أقوام أعزة كرام ، وكان الآخر يوشك أن يكون كدرا كله ، لا تنظر الا رأته مظلما حالكا ، لا يبتسم فيه أمل ولا ينبعث منه ضوء ، وهو لون الحياة الذليلة فى بلد نازح ، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم ، انما دفعتها اليهم خطوب الحياة دفعا ، وألقتها اليهم صروف النوى القاء ، فهذا شبابها يذبل ، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق ، وهــذه آمالها تبتر بترا ، وقد كانت تريد أن تمتد وتنبسط . وهى ترى هــذا كله خاشعة خاضعة ، مؤمنة مذعنة ، لم تختر منه شيئا ، ولا تستطيع أن تغير منه شيئا ، وهى قد وطنت نفسها أو وطنتها الأحداث على أن تكون أمة طيعة ، تخدم سادتها فى نصح أو فى غش ، ولكنها تظهر لهم الطاعة والخضوع على كل حال ، وهى محزونة النفس كاسفة البال لا تبتسم الا بتكلفة ولا تضحك الا متصنعة ، ولا تطمئن الى هؤلاء الذين من حولها ، ينظرون اليها نظرات

مهما يملؤها العطف والرفق فهى نظرات السادة الذين يملكون ويستعملون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون ، لهم أن يبيعوها وان لم تؤثر أن تباع ، ولهم أن يهبوها وان لم تحب أن توهب ، ولهم أن ينقلوها من يد الى يد ومن مكان الى مكان . ولعلها أن تكون مؤثرة لهذه اليد التى بسطت عليها ، منكرة لهذه اليد التى يراد أن تنقل اليها .

ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تنفذ ما تريد ، وأى قيمة للارادة اذا عجز صاحبها العجز كله عن أن ينفذها ويجرى أحكامها !

انما الارادة العاجزة أقبح صور الذل ، وأشنع ألوان الرق وأبغض ما يلقى الانسان فى الحياة .

— ٢ —

كاتبـــه :

كاتب هــذا النص هو واحد من رواد النهضة الأدبية المعاصرة ، وأبرز المجددين فى ميادين : الفكر والثقافة والأدب والنقد والتربية والاجتماع ، وهو الدكتور / طه حسين — ١٨٨٩ — ١٩٧٣ — ولد فى قرية من صعيد مصر على مقربة من مدينة مغاغة — باقليم المنيا — وقد ألحقه والده بكتاب القرية فحفظ القرآن الكريم فى وقت مبكر من حياته ، ثم التحق بالأزهر الشريف ونهل من علومه الدينية واللغوية والأدبية — بنهم — ولكنه تمرد على طريقة التعليم فيه ، وأخذ يختلف الى الجامعة الأهلية التى فتحت أبوابها للطلاب سنة ١٩٠٨ فانتظم فيها . وتلقى عن كبار الأساتذة والعلماء من المصريين والمستشرقين . وتأثر بكثير منهم ، وقد كان أول طالب مصرى يظفر بدرجة الدكتوراه فى الآداب من هــذه الجامعة عن رسالة « ذكرى أبى العلاء » ، ولقد أوفدته الجامعة فى بعثة علمية الى فرنسا ليدرس فى جامعاتها ، وهناك

درس العلوم التاريخية والفلسفة وعلم النفس الى جانب دراسة الآداب اليونانية واللاتينية القديمة والادب الفرنسى الحديث ، وكان أهم ما شغف به من دراسات فى السوربون المسائل الفلسفية والاجتماعية ، وقد جعل رسالته للدكتوراه عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » .

ولما عاد الى مصر عمل أستاذا فى جامعة الاسكندرية ثم عميدا لكلية الآداب . ثم مديرا لجامعة الاسكندرية . وظل يرقى فى ســـلك الوظيفة حتى عين وزيرا للمعارف فرئيسا لمجمع اللغة العربية .

وحياة طه حسين مليئة بالكفاح ، فلقد شهر قلمه يناضل المتعصبين فى الدين والأدب والسياسة ، كما ناضل فى سبيل تغذية أمته بالمثل الأدبية عند اليونان والغربيين ، كذلك سلك منهجا جديدا فى بحوثه ودراساته الادبية واختط طرقا جديدة فى عالم القصة يعينه فى ذلك ملكة أدبية فذة واستعداد أصيل .

ومن أهم آثاره :

١ ــ فى الادب ونقده : فى الأدب الجاهلى ، حديث الأربعـــاء (٣ أجزاء) ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، مع المتنبى .. الخ .

٢ ــ فى القصة والرواية : الحب الضائع ، المعذبون فى الأرض ، شجرة البؤس ، دعاء الكروان .

٣ ــ فى السير والتراجم : الأيام (فى ثلاثة أجزاء) ، على هامش السيرة (٣ أجزاء) ، الشيخان ، عثمان ، على وبنوه .

ــ ٣ ــ

أفكار النص : فى هــذا النص صور الكاتب بخياله الخصب العميق وبيانه الرائع المؤثر ، تلك الأمة الحبشية ــ أم أيمن حاضنة رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ التى آلت اليه عن طريق الارث ضمن

ما آل اليه من متاع قليل خلفه والده بعد وفاته ، ولقد آثرها الله بحضانة الرسول الكريم فى طفولته بعد أن ماتت أمه ، وقد رعته طفلا وصبيا وشابا ، حتى اذا بنى بالسيدة خديجة — رضى الله عنها — نظر صلوات الله وسلامه عليه الى هذه الأمة التى نعم بحبها وحنانها وحسن رعايتها فاعتقها ومنحها حقها كاملا فى الحياة الحرة الكريمة ، وقد تزوجت من رجل من أهل يثرب كان يقيم فى مكة ، وأنجبت منه ابنها — أيمن بن عبيد — الذى كنيت به ، وقد استشهد فى غزوة حنين • وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يؤثرها بعطفه وبره ، وكان يتحدث عنها قائلا لأصحابه : « انها بقية أهل بيتى » ، ولما مات زوجها — عبيد — قال فيها — صلى الله عليه وسلم — : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنه فليتزوج أم أيمن » ، وفى هذا ما يدل على مكانتها فى الاسلام ومنزلتها عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد أدرك زيد بن حارثة هذه المنزلة الرفيعة لأم أيمن ، فأسرع واتخذها له زوجة فولدت له — أسامة بن زيد — قائد جيش الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذى جهزه لتأديب المارقين ومحاربة المرتدين ، وقد شهدت أم أيمن خلافة أبى بكر وعمر وماتت فى خلافة عثمان •

ولقد برع الكاتب فى تصوير مشاهد هذه الأمة ووصف الجو النفسى الذى كان يحيط بها تصويرا فنيا دقيقا ، يدل على قدرة الكاتب على تمثل أهواء النفس ونوازعها وما طبعت عليه من تعشق الحرية والتنكر لحياة الرق وما يتبعها من عبودية واذلال ، وقد أسعفه خياله الرحب وحسه العميق فى أن يتخيل ما كان يعتلج فى أعماق الأمة من صراع نفسى مرير ، وما يختلج فيها من شعور بالأسى والكآبة ، فهى موزعة المشاعر بين وطنها القديم ووطنها الجديد ، الذى لم تألف فيه المقام • وهى تواقة الى حياة الحرية التى سلبت منها اثر صيرورتها الى حياة الرقيق ، وهى لم تأنس الى حياة الرق وما يتبعها

من ذل وهوان . ومع ذلك فهى ليست متمردة على حياتها الجديدة ، لأنها تعيش عزيزة كريمة فى بلد عزيز وبين قوم كرام ، ولكنها ليست مبتهجة بهذه الحياة لشعورها بأنها تقيم فى بلد بعيد وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم .

وهى شقية بخطب الزمان الذى أوقعها فى قدر مؤلم فت فى عضدها وأنهك قواها ، وبرغم هـذه الأحاسيس المتباينة المتضاربة فى نفس الأمة ، فلقد وطنت نفسها على خدمة سادتها مطيعة مخلصة ، ذليلة خاضعة ، لأنها سلبت أعز شىء فى الحياة ، وهو الحرية والارادة .

ولقـد بلغ الكاتب مبلغا عظيما فى التعبير عن مشـاعر الرقيق وتصـوير نفسهم وما تنطوى عليه من هموم وأحزان وآلام ، حيث افتقدوا الحرية وحرموا الارادة ، وفى هـذا ما يدل على أن الكاتب كان ينكر بشدة استعباد الانسان لأخيه الانسان ، ذلك السلوك المشين الذى كان متفشيا فى المجتمع الجاهلى — حتى جاء الاسلام فحرمه وحاربه بكل سلاح — ومن أسف فان كثيرا من الأمم التى تزعم لنفسها الرقى والتحضر لم تزل تبيح لنفسها انتهاك حقوق الانسان سالكة طريق التمييز العنصرى البغيض والغزو العسكرى الفاتك .

— ٤ —

القيم الفنية للنص : الدكتور طه حسين صاحب مدرسة أدبية مميزة بين مدارس النثر الفنى المعاصر — وله أسلوبه الأدبى الخاص ، وهو الأسلوب الجمالى والتصويرى الذى يقوم على انتخاب الألفاظ الرشيقة العذبة والصور البيانية الفائقة والموسيقى الحلوة العذبة ، والخيال الرائع الخصب ، الذى مكنه من تمثل المواقف وتشخيصها وبعث الحيوية فيها ، وأظهر ما يكون ذلك — فى قصصه ورواياته — .

وفى هـذا النص كثير من خصائص أسلوبه ، ويمكن أن نستنبط منه ما يأتى من قيم جمالية وتعبيرية .

١ — روعة التصوير والتفنن فيه :

وسبيله فى ذلك تجسيم المعنى وتشخيصه عن طريق المجازات والاستعارات التى ألف منها صوره الفنية الجميلة كقوله : مصورا حياة الأمة ولون تلك الحياة الذابلة : « ... وكان الآخر يوشك أن يكون كدرا كله ، لا تبطـر الا رأته مظلما حالكا ، لا يبتسـم فيه أمل ، ولا ينبعث فيه ضوء » .

وقوله : « فهذا شبابها يذبل ، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق » .

أرأيت الى هـذا — الأمل الذى يبسم — والضوء الذى ينبعث ، والشباب الذى يذبل،والذى يريد أن يزهر ويتألق ،وكلهاصورجميلةمعبرة عن المعنى ومشخصة للاحساس الداخلى للأمه . وقد امتلأ النص بمثل هـذه الصور البيانية الأخاذة .

٢ — الالحاح على تعميق المعنى وتوكيده والاستقصاء فيه :

وسبيله فى ذلك استخدام الوسائل المختلفة للتوكيد . مثل : انما فى قوله : « انما دفعتها اليهم خطوب الحياة » ، « انما الارادة العاجزة اقبح صور الذل » والمفعول المطلق فى قوله : « وهـذه آمالها تبتـر بترا » ، « انما دفعتها اليهم خطوب الحياة دفعا ، وألقتها اليهم صروف النوى القاء » وهى مؤكدة لعاملها ، والتعبير عن المعنى الواحد بصورتين مختلفتين قصدا الى توكيده وتعميقه فى نفس سامعة وقارئه ، كقوله : « وقد كانت تريد أن تمتد وتنبسط » ، و « لم تسل عن حريتها ولم تاسى الى رقها » وقوله : « وهى محزونة النفس كاسفة البال » .

وهـذا من أسلوب الكاتب المميز الذى يمكنك أن تستغنى عن بعض عباراته دون أن يخل ذلك بالمعنى ، كقوله : « وهى قد وطنت نفسها أو وطنتها الأحداث على أن تكون أمة طيعة » .

وكقوله : « ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تنفذ ما تريد » ، ولعل الذى أغراه بهذا الأسلوب هو تمكنه من زمام القول وناصية اللغة التى كانت تنسال عليه ألفاظها طيعة ، وتتدفق سهلة فى غزارة — كما ترى — •

٣ — عنايته بعنصر الموسيقى فى النص الذى يتأتى من انتقاء الألفاظ العذبة ذوات الايقاع الموسيقى الجميل ، والصنعة غير المتكلفة التى تحلى بها النص — كالجناس — فى قوله : « وهى ترى هذا كله خاشعة خاضعة ، مؤمنة مذعنة » ودقة الفواصل وروعة السجع فى قوله : « فهى نظرات السادة الذين يملكون ويتعملون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون » ، وجمال التقسيم فى قوله : « لهم أن يبيعوها وان لم تؤثر أن تباع ، ولهم أن يهبوها وان لم تحت أن توهب »• ومن أخص خصائص أسلوب طه حسين فى كتاباته — أسلوبه المتموج الزاخر بالنغم ، فلا تستمع الى كلام له حتى تعرفه بطوابعه المعينة فى عباراته المألوفة التى يأخذ بعضها برقاب بعض فى جرس موسيقى بديع » •

٤ — ومن خصائص النص براعة الكاتب فى التعبير عن الجو النفسى المحيط بالأمة ، وقدرته على استحضار المواقف وتمثل المشاهد وتخيل المشاعر المتباينة التى ألمت بالحاضنة على النحو الذى رأيت •

٥ — القيمة الأدبية للنص :

لقد استمد الكاتب أحداث هذا النص من التاريخ الاسلامى مستلهما روح التراث فيه ، وتمكن من توظيف التاريخ فى خدمة الفن ، لأنه لم يحك الأحداث ، حكاية جافة مجردة تعتمد على السرد وتبعد عن التحليل ، ولكنه مزج التاريخ بالفن الأدبى ، وصاغ الأحداث التاريخية فى قالب قصصى مشوق يقوم على التصوير والتحليل ،

وأضفى على الحقائق التاريخية من شخصيته وفنه ما جعلها عملا أدبيا رائعا ؛ يندرج تحت فن ـ التراجم والسير ـ وهى من الأعمال الأدبية الجديدة التى قدمها طه حسين لفنون الأدب المعاصر وبرز فيها تبريزا كان موضع اشادة من النقاد العرب والأوربيين • حيث ترجمت بعض أعماله فى هـذا الباب الى عدد من اللغات الأوربية •

* * *

٤ – « قرآن الفجـر »
الزيـات

– ١ –

– النص –

يقـول الزيـات :

« سهرت بجانب المذياع ليلة أستمع الى أم كلثوم فى حفلتهـا الاذاعية الشهرية ، وكان صوتها ينبعث من الجهـاز رخيمـا عذبـا ، فيملأ جوانب نفسى وحسى ، كأنما كنت أسمعه بجسمى كله ، فـاذا انقطعت (الوصـلة) أخذ المذيع يثرثر بالفـارغ ويعض المـلآن ، فينقلنى من نشوة النغم المرفة الى صـحوة السأم الممض . الى ان أقبلت هوادى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغنـاء فى وصلتها الأخيرة . وكان الشارع قد سكن والبيت قد نام والمذيع قد فتر .

فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب فى مسمعى ، نقيا كرنين الفضة ، نديا كرجيع البلبل ، تقيا كتسبيح الملائكة ، فاعترتنى حـال من الصوفية الشاعرة ، فيها الحب والشوق ، وفيهـا الغناء والعبادة ، حتى اذا انتهى الغناء الآسر وانفض السامر النشوان ، أويت الـى مضـجعى ألتمس النوم فامتنع على ، ووجدت بى نزوعا الى اجتـلاء الطبيعة فى مجتلاها الرحب .

فصعدت الى سطح البيت المنعزل ، وأرسلت عينى تجـولان حول البيوت المظلمة النائمـة ، ومن ورائهمـا خيـال ينفذ من وراء الجدر والستور ، الى أنماط شتى من الناس تفاوتـوا فى الحظوظ وتباينوا فى الأحوال ، فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعوده طيف ولا يزعجه حلم ، ومن شجى يسامره الهم ويساوره القلق فـلم تكتحل عيناه بغمض ، ومن مريض يتململ على فراشه النابى فلا يدكن

الا ايتقاب ، ولا يسكت الا ايئن ، ومن حبيب يخلو الى حبيبه خـــلوة النوال بعد الرعبة أو الوصال بعد القطيعة ، وثالثهمــا شـــيطان يحرس أو ملك يحرس ، ومن زوج يسدن الى زوجه ســكون المــود والرحمة ، وتحت جناحيهما فراخهما الزغب ينعمون بالنوم الســـعيد فى العش الهادىء الدافىء ، ومن مجرم يطوى أحناء صـدره على السوء ، فهو يبيت بليل ما سيقترفه غدا من العدوان والاثم ، ولا يجــد من ضميره الغافى حسابا على ما اقترف بالامس من المنكــر والبغى ، ومن مؤمن قضى موهنا من الليل يتهجد بالصلاة ، ويتعبد بالذكر ، ثم غفا قليلا ليهب عليه نسيم السحر ودعاء المؤذن الى بيت الله القريب .

كل هؤلاء ضمتهم هذه البيوت المتجاورة المتغايرة كما تضــم السرائر نوازع القلوب ونوازى الانفس فلا يعلمها الا الله ، الــذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، ثم نظرت نظرة فى النجوم وهى تسبح فى افلاكها بين متالق وخاب ودان وقاص وصاعد ومنحدر . فتواردت على خاطرى مختلف الآراء التى اســتقرت فى أذهان الناس عنها فى القديم والحديث .

كنت مشغولا بفكرى وخيالى فى الكونين الأدنى والأعلى حين وقع فى مسمعى تسبيح المؤذن على منارة (قايتباى) . فعدت من التفكير فى الملكوت الى التفكير فى المالك ، وانتقلت من التوجــه الى المخلوق الى التوجه الى الخالق . وانبعث آنئذ من جانــب البيــت الملاصق صوت خاشع ، يقرأ سورة الاسراء بتجويد بين وترتيل حسن ، وكان القارىء المتهجد قد بلغ فى قراءته قول الله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرءان الفجر أن قرءان الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

فأصغيت بسمعى وقلبى الى كلمات الله وهى تصعد اليه مــن فم هذا الرجل فى جلوة السحر وخلوة المكان ، وقد سجا الليـــل

ورق الظلام وعمق النور واختلط سنا « الزهرة » بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقي ابيضاض اللؤلؤ ، وتجاوب أذان المؤذن وترتيل المرتل تجاوب الوحي والدعوة فذكرت بالقرآن الله الذي أوحى وبالأذان الرسول الذي بلغ •

وامتد الصوتان في نفسي صوت ايماني القوى بالموحي والمبلغ ففنى وجودي المادي في وجودي الروحي ؛ فلم أعد أشعر بالفلك ولا بالزمن ولا بالعالم ، وانمحى من مسمعي ما كان يشغلها من الأصداء اللاحة لتشدو أم كلثوم ولحن السنباطي ونظم رامي ، وبقيا فارغين خالصين لسبحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانهما بقوة ولذة واستيعاب فيسريان في كياني ووجداني مسرى البرد في السقم أو الروح في البدن أو الايمان في القلب ، لا لحسن الصوت ولا لجمال الايقاع، ولكن لشعور سماوي لا تدركه حاسة ولا تصفه لغة ولا يعرفه الا من وقف هذه الوقفة مستحضرا في ذهنه جلال الله مستشعرا في نفسه جمال الطبيعة •

انا لنسمع القرآن والأذان في كل يوم وفي كل صلاة ، ولكننا حين نسمعهما لا نجد في أنفسنا تلك الجلوة التي تنشأ عن الصفاء • ولا ذلك الاستشراق الذي يصل ما بينها وبين السماء ، ذلك لأن مشاعرنا تكون في النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لمواحي الروح في العالم الآخر •

أما الاستماع اليهما وقد هب المتقون من اغفاءة الفجر اللذيذة حين لا يكون المرء الا روحا تمضي وفكرا يجول وخيالا يحلق ونفسا تصلي، فتلك هي ساعة التجلي • ساعة يندمج فيها الشاهد في المشهود وينفعل العابد بالمعبود ، ويشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور السطح ، أنه شعاعة من نور الله اذا انقطعت عن مدده خمدت ، وهباءة في فضاء الكون اذا أفلتت من جذبه فقدت ••• » •

* * *

صاحب الذكرى : صاحب هذا النحى الأدبى الرفيـــع هـــو الأديب الكبير والكاتب الأشهر ، أحمد حسن الزيات — رائد مدرســة أدبية فى النثر الفنى المعاصر ، لها طابع مميز ومذاق أسلوبى خاص ، تربى على أصولها ونهل من معينها عديد من الأدباء والكتاب العرب ، الذين باشروها ونسجوا على نمطها الفريد حتى ما بعد منتصف هــذا القرن .

ولد الزيات فى مدينة المنصورة عام ١٨٨٥ م . ومدينة المنصورة مدينة السحر والفن والجمال تربى فيهـا وأغرم بمناظرها الطبيعية الفاتنة عــدد من شعراء هــذا العصر وأدبائه ، وقد التحق الزيات بالأزهر الشريف بعد أن ارتحل الى مدينة القاهرة وفيه تلقى علوم الدين واللغة والأدب ، وظهر نبوغه الادبى منذ وقت مبكر من حياته فمضى يدبج — بريشته الصناع وبيانه العذب — المقالة تلو المقالة يضمنها دعوته الى التحرر من قيود المـاضى البغيض ، ويدعو فيها الى كل جديد مفيد دون أن ينسلخ عن تراثه العربى العريق ومجده الاسلامى الخالد .

وقد أسهم الزيات فى تحرير كثير من الصحف والمجلات الأدبية الكبرى ، فكتب فى الجريدة التى كان يصدرها أحمد لطفى السيد ، وفى مجلة — مصر الفتاة — التى كان ينشر فيها بحوثا أدبية قيمــة مع زميله طه حسين . كما كان يكتب فى مجلة — السياسة الاسبوعية — وفى غيرها .

وفى عام ١٩٣٢ ، أصدر الزيات مجلته الأدبية الثقافية القيمة — الرسالة — التى تعد مدرسة أدبية كبرى ذات أثر عظيم فى نمو الحياة الفكرية واثراء الحياة الأدبية والثقافية فى الشرق العربى كله ، وقد فتح بهـا نوافذ جديدة أطل منهـا الأدباء على روائع الأدب العربى

والغربى ، كما كانت مصدرا قويا من مصادر اليقظة الوطنية والوعى القومى والدعوة الى تحرر الأوطان من كافة ألوان الاحتلال •

ـ وقد ظل الزيات يغذى هذه المجلة بمقالاته المتعددة فى شتى ألوان الفكر والفن والأدب ، وهـذه المقالات كلها جمعت فى مجلدات ضخمة عنوانها « وحى الرسالة » •

وقد شارك الزيات بأعماله الأدبية العديدة فى تجديد شـباب أدبنا العربى الحديث ، حتى عد بحق واحـدا من رواد التجديد فى نهضتنا الأدبية المعاصرة ، ومن أبرز أعماله الأدبية :

١ ـ تاريخ الأدب العربى ، وهو كتاب أرخ فيه للأدب العربى من عصر الجاهلية الى العصر الحاضر فى نحو من خمسمائة صفحة ، فى ايجاز واع وعرض دقيق مختصر •

٢ ـ دفاع عن البلاغة ـ وهو كتاب جم النفع عظيم الفـائدة متوسط الحجم ـ عرض فيه لقضية البلاغة العربية ودافع عنها أبلغ دفاع ، وفيه كثير من الفصول الرائعة المبتكرة •

٣ ـ فى أصول الأدب ـ وهو كتاب فى الأدب والنقـد يتميـز بالدقة والتحليـل والعمق •

٤ ـ ترجمة قصة « رفائيل » وهى احدى روائع القصص العالمى الواقعى للشاعر الفرنسى « لامارتين » ، وترجمة قصة « فاوست» للأديب الألمـانى الكبير « جوته » •

ـ ٣ ـ

تحليـل النص :

هـذا النص الأدبى الراقى من : ـ أدب المقال ـ الذى يعد من الفنون الأدبية الجديدة التى تبوأت مكانتها فى أدبنا الحديث ، والتى يعزى اليها تخليص آدابنا العربية الحديثة من قيـود الزخرف اللفظى واغلال الصنعة المتكلفة من بديع وغيره ، حيث كان الأدباء يحتشدون لها ويعدون المهارة فيها دليلا على التفوق والنبوغ فى الأدب •

— وفن المقال — كما عرفته آدابنا الحديثة — يعد وليد عصر النهضة الأدبية التى تاثر فيها ادباؤنا بالاتجاهات السائدة فى الاداب الأوربية ، اثر اطلاعهم عليها فى لغتها ، أو بعد ترجمتها الى اللسان العربى ، وان ذهب بعض مؤرخى الاداب الى أن هـذا الفن الأدبى قد عرفته ادابنا القديمة فى كتابات الجاحظ وابن المقفع وابن شهيد الأندلسى وأمثالهم من كتاب الرسائل .

ولقد تنوعت فنون المقال فى أدبنا الحديث ، لتنوع الموضوعات التى يعالجها كل مقال على حدة — فظهر المقال الوطنى . والمقال السياسى والمقال الاجتماعى ، والمقال الادبى . والمقال الانسانى أو الوجدانى . . الخ .

— والمقال بناء فنى دقيق يلتزم به كاتبه ، حيث تتكون أجزاؤه من مقدمة وموضوع وخاتمة — وعناصره الاساسية هى :

١ — المضمون ٢ — الأسلوب ٣ — التصميم والبناء .

— والمقال الذى عالجه الزيات هنا من قبيل — المقال الانشائى الوجدانى — وقد صور فيه انطباعه ازاء مشهد شاهده وخاطرة ملت بنفسه وقد نفذ فيها هذا الحس وغاصت فيها مشاعر الكاتب وعمقت تأملاته فى صفاء روحى وسبح صوفى .

— ومضمون المقال مضمون تأملى حيث توزعت مشاعر الكاتب بين التفكير فى اللاهوت والتفكير فى الملك ، وانتقل به فكره من التوجه الى المخلوق الى التوجه الى الخالق ، وذلك فى ليل ساكن ساج هزه فيه شدو غناء رفيع ، انبعث من صوت عذب رخيم ، فى سكون الليـل وهدأته . وسكوت التسجو بعد ساعته ، وقد صفا ذهن الكاتب وسبح به خياله يتأمل متناقضات الكون الساكن الخاشع من حوله فى اعتبار المعتبر وتأمل المتذكر ، وبعد أن حلق فى جو من تدبره وسبح فى فضاء العظمة والعبرة ، شده كلام الله الذى انبعث من فاه صاف خاشع يرتل أبهى ايات العظمة التى تأخذ بمجامع القلب وتجذبها اليها فى صفاء واشراق ، كما أسره أذان المؤذن وجمال تنغيمه وهو ينادى فى

الملأ من حوله ، أن هبوا الى توحيد المولى عز وجل الذى نطق بوحدانيته ودعا الى عبادته وحده ، فانتقل بالكاتب حسه الى صفاء روحى واشراق صوفى وشعور سماوى لا تدركه حاسة ولا تصفه لغة ولا يعرفه الا من وقف وقفته ، مستحضرا فى ذهنه جلال الله ، مستشعرا فى نفسه جمال الطبيعة .



— ٤ —

البناء الفنى للمقال :

لقد بنى الكاتب مقاله الذى بين أيدينا بنـــاء فنيا دقيقا مراعيا الأصول الفنية التى نوهنا بها آنفا ، اذ تكون مقاله من عناصر ثلاثة هى :

١ — المضمون : وهو عبارة عن الفكرة الأساسية التى احتشد الكاتب لمعالجتها ، والتى ألمعت اليها سابقا ، وقد مهد لها بمقدمة تودى اليها وتهىء النفس لاستيعابها والوقوف عليها ، ثم تناول هذه الفكـــرة بالعرض والتصوير الملائم لحجم المقال . ثم انتهى منها الى خاتمه تضم شتات الفكرة ، وتلخص النتيجة التى استهدفها الكاتب من مقاله .

٢ — الأسلوب : وهو الطريقة التى عالج بهـــا الكاتب مقاله ، والوسيلة الفنية التى عبر بها على فكرة هذا المقال وترجم بهـــــا عن معانيه ، وهى وسيلة بيانية جمالية ، حيث تفنن الكاتب فيها ، وأجاد تصوير فكرته من خلالها ، مستخدما الطاقة التعبيرية والصوتية للكلمة بما لها من دلالة وايحاء واشعاع فنى دقيق ، وبما لها كذلك من جرس ورنين موسيقى عذب ، وهذه الخصائص التعبيرية والفنية للفظة يمكنك الوقوف عليها فى كل ألفاظ النص حيث انتقى الكاتب ألفاظه انتقاء وانتخبها بذوق الاديب ووجدان الكاتب وبراعة المنتخب المدقق .

— كما اعتمد الكاتب فى نقل فكرته للقارىء على كثير من الصور البيانية الجميلة فى مجازاته اللطيفة وتشـــبيهاته الرائعة واستعاراته البارعة التى تتمثل فى قوله :

« ... سجا الليل ، ورق الظــلام ، وعمق النور ، واختلط ســنا « الزهرة » بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقى ابيضاض اللؤلؤ » وقوله : « فلم تكتحل عيناه بغمض » وأبعاد الصورة واضــحة فيما تمثلنا به هنا .

وفى النص ضروب من الصنعة اللطيفة ، التى تجمل الأساوب وتضفى عليه موسيقى عذبة ، تدركها فى قوله : « ... ومن شجى يسامره الهم ويساوره القلق » .

وقوله : « ... فلا يسكن الا ليتقلب ، ولا يسكت الا ليئن » .

وقوله : « وهى تصعد اليه من فم هذا الرجل فى جلوة السحر وخلوة المكان » .

حيث جانس جناسا ناقصا بين كل من : (يسامر ويساور) ، و (يسكن ويسكت) ، و (جلوه وخلوة) .

٣ ـ التصميم : وهو يعنى تصور الكاتب لموضوعه وبناءه بناء فنيا دقيقا ، بحيث يكون المقال متماسك الأجزاء ، مترابط الأفكار ، منسجم العناصر ، وتكون نهايته ملائمة لموضوعه ، وموضوعه موائم لمقدمته ، وأفكاره موزعة توزيعا منطقيا منسجما .

ـ ٥ ـ

القيم الفنية فى النص :

اتسم هذا النص الأدبى بالسمات والقيم الفنية الآتية .

ـ سمو المضمون ورفعته .

ـ البراعة فى انتقاء الفاظه والدقة فى استخدامها .

ـ جمال النغم وروعة الايقاع ولطف الموسيقى .

ـ روعة الأسلوب وتأثيره وفاعليته .

ـ هندسة العبارة ورشاقتها والدقة فى انتخابها •

ـ دقة التصميم الفنى وبراعة البناء الأدبى •

ـ المسحة الصوفية المشرقة التى تجلت فى ثنايا النص •

ـ الدوق الفنى الرفيع الذى يتملى الجمال ، ويتذوق روعة النغم ، ويتحسس خبايا النفس •

ـ المهارة فى انتقاء الالفاظ ذات الجرس المعبر والموسيقى العذبة والايقاع الصوتى الجميل •

ـ التأنق فى تأليف العبارات وتكوين الجمل والربط بينها •

ـ التفنن فى تأليف الصور الفنية الدالة ، والبراعة فى استخدام الصنعة اللفظية غير المتكلفة •

وهذه السمات الفنية الرفيعة التى استنبطناها من خلال هـذا النص تبين فى جلاء المذهب الأدبى للزيات الذى عنى بالقيم الجمالية فى أدبه عناية فائقة ، وقد تأثره فى هـذا المذهب عديد من أدباء العربية فى هـذا العصر ، ويكفى أن ندلل على هـذا بأن مجلته الخالدة « مجلة الرسالة » قد تربى عليها وتخرج فيها جيل من أدبـاء هـذا العصر وكتابه ممن نهضوا بأدبنا المعاصر نهضة واسعة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ •



« الوطن العربى » لجبران

ـــ مات أهلى ـــ

ا ــ « النص »(١)

قال جبران :

« مات أهلى وأنا فى قيد الحياه ، اندبهم فى وحدتى وانفرادى ..

مات أحبائى . وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم .. مات أهلى وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ، وأنا هاهنا أعيش مثلما كنت عائشا عندما كانوا جالسين على منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس .

لو دنت جائعا بين أهلى الجائعين ، مضطهدا بين قومى المضطهدين اكانت الأيام أخف وطأة على صدرى ، والليل أقل سوادا أمام عينى ، لان من يشارك أهله بالأسى والشده يشعر بتلك التعزية العلوية التى يولدها الاستشهاد . بل يفتخر بنفسه ، لأنه يموت بريئا مع الأبرياء .

ولكنى لست مع قومى المضطهدين الجائعين السائرين فى موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا هنا أعيش وراء البحر فى ظل الطمأنينة وخمول السلامة .

أنا هنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ، ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتى ولا بدموعى .

لو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى ، لكان الطفل الجائع يلتقطنى ويزيل بحباتى يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعـــة فى بساتين بلادى لكانت المرأة الجائعـــة تتناولنى وتتغذى .

---

(١) كتاب العواصف لجبران .

لو كنت طائرا فى فضـــاء بلادى لكان الرجل الجائع يصطادنى ويزيل بجسدى ظلا، القبر عن جسده •

ولكن واحر قلباه ! لست بسنبلة من القمح فى سهول ســوريا ولا بثمرة يانعة فى أودية لبنان ، وهــذه نكبتى الصامتة التى تجعلنى حقيرا أمام نفسى وأشباح الليل •

— لو ثار قومى على حكامهم الطغاة ، وماتوا جميعا متمردين ، لقلت : ان الموت فى سبيل الحرية لاشرف من الحياة فى ظل الاستسلام، ومن يعتنق الأبدية والسيف فى يده كان خالدا بخلود الحق •

ولو اشتركت أمتى بحروب الأمم ، وانقرضت عن بكرة أبيها فى ساحة القتال • لقلت : هى العاصفة الهوجاء ، تصهر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معا ، والموت تحت أغصان العواصف أشرف منه بين ذراعى الشيخوخة •

ولو زلزلت الأرض زلزالها ، وقلبت ظهر بلادى صدرا ، وعمر التراب أهلى واحبائى لقلت : هى النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهالة أن نحاول ادراك أسرارها وخفاياها •

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين •• مات أهلى على الصليب •

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم محدقة بسواد الفضاء • ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم •

ماتوا لأن الثعبان الجهنمى قد التهم كل ما فى حقولهم من المواشى، وما فى اهرائهم من الأقوات •

صاحب النص :

— ١ —

ولد جبران خليل فى ديســمبر ١٨٨٣ فــى مدينــة « بشرى » بلبنان ، وتعلم فى مدرسة الحكمة ببيروت ، ثم رحل الى باريس ومنها الى مدينة بوسطن بأمريكا ، فأقام فيها يشتغل بالكتابة والتصوير ،

ثم عاد سنة ١٩٠٨ الى باريس ليتم دراسته فى التصوير فى معهد الفنون الجميلة ، وفى باريس فتن بشعر الشاعر الانجليزى «وليام بليك»، وصار جبران شاعرا يلتقى فيه الفن الجميل والشعر ، الشعر المتحرر من قيود الوزن والقافية فى كثير من الأحايين •

وفى عام ١٩٢٠ أسس جبران وعبـد المسيح حداد واخوانهما « الرابطة القلمية » فى نيويورك ، وصار جبران رئيسا لها وبعـد كفاح طويل مات جبران فى ابريل ١٩٣١ فى نيويورك ، ونقل جثمانه الى لبنان فدفن فى بلدته « بشرى » وترك وراءه ذكرا مدويا وشهرة ذائعة ، وتلامذة معجبين متأثرين بأدبه ودعوته التحررية فى الشعر والفن والأدب جميعا •

— ٢ —

وقد خلف جبران مجموعة من المؤلفات التى ذاعت شهرتها وترجمت الى ست وخمسين لغة منها : « النبى » و « المجنون » و « رمل وزبد » والأمواج والعواصف ، والأرواح المتمردة ، والبدائع ، وحديقة النبى وعرائس المروج ، ودمعة وابتسامة والأجنحة المتكسرة ، وبعض هذه المؤلفات باللغة العربية وبعضها باللغة الانجليزية •

وجميع هـذه الآثار مطبوعة ، ولم يبق مخطوطا من آثاره الا بعض رسـائله التى كان يبعث بها الى السـيدة — مارى هورى — وهى من أجمل ما كتب •

وقد بدأ جبران حياته الفنية والأدبية والفكرية قاصا روائيا ، تراوحت كتاباته بين الغنائية الذاتية وبين الواقعية القريبة من الغنائية الذاتية ، يتناول فيها أمور المجتمع ومشكلاته أو مشكلات حياته الخاصة ومناسبتها ، ناقدا فاحصا كما نطق بهذا كتبه الأولى : الأرواح المتمردة، عرائس المروج • الاجنحة المتكسرة •

ولكنـه عندما ازداد أوار انطوائيته المضطربة القلقة المتأملة ، جنح الى الحوار والقصص الرمزيين متخذا الموضوعات والأشخاص

والحركة الحوارية والقصصية رموزا لأفكاره ومشاعره ، وكلها من صميم معاناته الوجود ومشكلاته وجانبه الفلسفى · الدينى أو الاجتماعى أو الأخلاقى •

وقد ميز جبران قلقه العميق المتواصل بين الشك والمحبة . هـذا القلق الذى أجج ناره فيه اصطدامه بالفيلسوف الألمـانى ـ فريدريك نيتشه ـ وقد أخرج هـذا الاصطدام جبران من وحدته ليعيش من جديد فى صراع عنيف بين الايمان بالله وبين الكفر بكل عقل أو نظام فى الوجود من جهة ، وبين النزعة الانسانية المحبة للانسان ، وبين اهدار كل قيمه انسانية •

وظل جبران يتأرجح بين تيارات مختلفة من الثقافات : أبرزها فلسفة نيتشه الوجودية الاجتماعية الملحدة ، وبهذا كان للرمزية عند جبران الى جانب ما أوتى من قوة الخيال نزوع صوفى انسانى الى الله ـ سبحانه وتعالى •

والرمزية فى أسلوب جبران تظهر فى شكلين : رمزية جزئيات الجملة عنده بين تشبيه واستعارة رمزية ، شأنه فى هـذا شـأن عامـة الأدباء وبخاصة العرب القدامى •

ورمزية أسلوبه الذى كان الحوار والقصص الرمزيان مظهرين من مظاهره التعبيرية الفنية •

— ٣ —

تحليـل النص :

جلبت الحرب العالمية الأولى على الانسانية كلها ما جلبت من ويلات وشرور ونوازل وآلام ، وكان نصيب لبنـان ـ وطن جبران ومأوى عائلته وذويه الأوله ـ من ويلات هـذه الحرب كثيرا ، حيث فتكت المجاعة بأهله ومات منهم خلق كثير متأثرا بما تعرض له من ضراوة الجوع والحرمان الى جانب ما كان يرزح تحته من نير الظلم والطغيان تحت وطأة الاسـتبداد العثمانى الغاشم وقبضة الاحتلال الفرنسى البغيض •

وهذا النص الأدبى يصور عاطفة جبران الوجدانية بما فيهـــا من معانى الانسانية والوطنية والحنان ، حينما حدثت المجاعة بالشرق عقب الحرب العالمية الأولى ــ كما ذكرنا ــ وحيل بين المهاجرين وأهليهم الذين حصدهم الجوع •

كما أنه تصوير ثائر حزين جسد فيه مشاعره القومية وأودع فيه آلامه الحزينة ، وعبر فيه عن لوعته وأساه ، لمـا حل بأهله وبنى وطنه من فقر وجوع وموت ذابل • وفيه ترجمة صادقة عن حنينه الى وطنه وشوقه اليه وعطفه على هـذا الوطن المهيض معربا عن أمنيته الكبرى فى أن يكون بين هؤلاء المنكوبين يشاطرهم المحنة ويقاسمهم الأسى ويشاركهم فداحة الخطب الذى نزل بهم ، بل انه ود لو كان بين أهلـه مضطهدا كما اضطهدوا ، معذبا كما عذبوا ، جائعا كما جاعوا ، سائرا فى موكب الموت كما ساروا ، فهذا كله أخف وقعا على نفسه مما يعانيه بعيدا عنهم من مشاعر الأنين ولوعة الحسرة لمـا وصل بوطنه من ظلم فادح ومصاب أليم • بل انه ذهب الى أبعد من هذه الأحاسيس حينما تمنى أن يكون فى وطنه أثناء محنته ، وأن يكون مخلوقا من عالم النبـات أو الثمر أو الطير حتى يلتهمه الجائعون يسـدون به الرمق ويقيمون به الأود حتى تبقى لهم الحياة •

وجبران اذ يصور هـذه المشاعر القومية والعواطف الانسانية لم يفته أن يعلن صرخة مدوية فى وجـه الظلم والظالمين من الحكام الطغاة ، ويهيب بقومه أن يتمردوا على واقعهم الأسيف ، وأن يشنوا ثورتهم على حكامهم الطغاة المستبدين ، حتى ولو قادهم ذلك الى الموت ، لأن الموت فى سبيل طلب الحرية أشرف من الحياة فى ظل الاستسلام •

كما يحرض أمته ويغريها بأن تفزع كلها الى ساحة القتال الذى يخلصها من سيطرة الغاصب عليها وتلاعبه بمقدراتها ، فذلك أكرم لها من أن تبقى ذليلة تئن تحت قبضـة الطغاة • وهو ينعى على الظلم والظالمين ، ويترجم عن ثورة كامنة فى أعماقه من ظلم البشرية التى أصمت آذانها عن الاصغاء لصراخ المنكوبين وعويل النائحين ، الذين

ضاقوا بجشع المستبد الذى التهم خيرات بلادهم وتركهم يتضورون من الفاقة ويتجرعون الحرمان ، حتى ماتوا صامتين ، لأن آذان البشرية قد اغلقت دون صراخهم .

— ٤ —

خصائصه الفنيـة :

كان جبران فى طليعة الأدباء المهاجرين الذين أثروا أدبنا الحديث بأسلوبهم الأدبى الجديد ، وأخيلتهم التصويرية المجنحة ، واستعاراتهم الجـديدة المبتكرة ، وبيانهم الطلى الذى يترقرق عذوبة ورقة ، على ما ينطوى عليه من روح ثائرة متمردة ، حتى نسب اليه أسلوب الانشاء العصرى الخيالى العاطفى ، لأنه كان زعيم مدرسة التجديد ، والمؤثر الأولفى الاتجاهات الفكرية الانسانيـة والتأملية ، وفى اسـتلهام الطبيعة وفى التحرر الفكرى والتعبيرى وفى الخيال المحلق والرمزية الحلوة .

— وكان جبران أجرأ من انتقض على الأساليب القديمة ، وفتح الكلمة آفاقا جديدة « فى عهد شـل فيه الفكر وجهد اللفظ وتقلص الهدف » .

وهذه هى السمات العامة التى ميزت جبران فى كتاباته .

— وفى النص الذى بين أيدينا كثير من هذه السمات الفنيـة ؛ ففيه ثورة رومانسية على ما أصاب وطنه من آلام ومحن ، وفيه تصوير عاطفى لما كان يعانى منه فى غربته من مرارة ووحشة ولما كان ينتابه من مشاعر الحنين الى وطنه ، وفيه ثورة صارخة على ظلم بنى الانسان للضعيف المقهور ، وهـذه المعانى والأفكار تناولها جبران فى اسلوب تصويرى وكساها ثوبا بيانيا جديدا ، وعبر عنها فى ألفاظ عذبة رشيقة جميلة ، وفى موسيقى صافية جميلة ، وفى براعة تصوير ، وافتنان فى تأليف الصور الجديدة المبتكرة .

ـــ وتلاحظ هـــذا كله فى الفقرة الأولى فى النص الذى يقول فيها جبران :

« مات أهلى وأنا فى قيد الحياة ، أندبهم فى وحدتى وانفرادى..
مات أحبائى وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم ..
مات أهلى وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ،
وأنا هنا أعيش مثلما كنت عائشا عندما كانوا جالسين على منكبى الحياة وهضبات بلادى مغموره بنور الشمس .

ففى قوله : « وأنا فى قيد الحيـــاة أندبهم » تصوير لمشـــاعر الأسى وأنات الذل وبرمه بالحياة التى قيدته عن الحركة الحرة التى تصل به الى ما يتطلع اليه من آمال .

وفى قوله : « عندما كانوا جالسين على منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس » تصوير لحال قومه عندما كانوا يعيشون مطمئنين قبل النكبة التى قهرتهم والمحنة التى ألمت بهم ، حيث كانوا جالسين على منكبى الحياة يغمر نور الشمس هضبات بلادهم كما يغمر المـــاء الغزير ما ينصب عليه . وهـــذه صور جديدة فيها جراءة فى استخدام الألفاظ وتجسيم الأشـــياء ، والنص ملئ بهـــذه الصور . كقوله : « ولو اشتركت أمتى بحرب الأمم وانقرضت عن بكرة أبيها فى ساحة القتال ، لقلت : هى العاصفة الهوجاء ، تصهر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معا ، والموت تحت أغصان العواصف أشرف منه بين ذراعى الشيخوخة » .

ـــ أرأيت الى هـــذه العاصفة الهوجاء التى تصـــهر الأغصان الخضراء واليابسة معا بعزمها الحديدى ! ثم تأمل الموت تحت أغصان العواصف وما يرمز اليه هـــذا التعبير من عدم استكانة لذل أو خضوع لقهر ، فهو أشرف من الموت بين ذراعى الشيخوخة بعد أن ينسلخ العمر وينقضى تحت وطأة الاذلال والاستبداد دون ثورة معبره عن مشاعر وطنية واحاسيس قومية .

وقد ساعد جبران على الافتنان في ابداع الصور الجديده ودقة تاليفها أنه كان رساما قبل كل شيء ، فالصورة عنده عماد التعبير . يتصور بخياله الرحب فيفكر ويحس ، وتلمع الخاطرة في ذهنه فتشف عن صورة . وقد لا تكفيه الصورة فيشبهها بصورة أخرى ولذلك كثرت التشابيه في كتابته حتى عد رساما أكثر منه كاتبا » .

ومن طريف صوره في غير هـذا النص قوله : « أنا غريب في هـذا العالم . وفي الغربة وحشة موجعة ، تجعلني أفكر أبدا بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ أحلامي أشباح أرض قصية ما رآتها عيني » .

« في المساء ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء . اذا سكن الليل رقدت الحياة ، واذا انتصف ألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمة الليل » .

ففي مثل هـذه الصور الفنية الجميلة تتفتح الحركة والحياة في سبيل تجسيم المعنى والرمز التعبيري الى ما استهدفه الكاتب في اطار تصويري رائع وتعبير أدبي راق ، حتى يخيل الى قارىء أية قطعة أدبية لجبران أنه أمام قصيدة شعرية افتن في ابداعها خيال شاعر مصور — ولا غرابة فلقد كان جبران شاعرا كذلك وان تميز في الكتابة عنه في الشعر .

ومن نماذج شعر جبران قوله في قصيدة — المواكب — :

ليس في الغابات راع لا ، ولا فيهـا القطيع
فالشـتا يمشي ولكن لا يجاريه الربيـع
خـلق النـاس عبيـدا للذي يأبى الخضـوع
فـاذا ما هب يومـا سـائرا سار الجميـع
اعطني النـاي وغن فالغنى يرعى العقـول
وانين الناي أبقـى من مجيد وذليل .. لخ .

ومن صـور نثره الذى تتمثل فيه الخصائص الفنيـة المميزة لأسلوبه قوله :

« أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط راسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع بي » •

« أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ، وأنثر ما تنظمه ، ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبا حتى تحفذني المنايا وتحملني الى وطني » •

يقول عنه أحد من عنى بدراسته : « كان جبران ذا أثر بالغ في الآداب العربية والغربية على السواء ، فلقد أوجد في اللغة العربية مدرسة بيانية جديدة تخاطب جميع الحواس وتحدث الجو الساحر ، ونشر من الأذكار ما يغذى العقـــول ويرهف الآذان ، فاصبح قدوة للأدباء الشباب في الأقطار العربية » •

وقال له الرئيس الامريكي الأسبق ـــ روزفلت ـــ « أنت أول عاصفة انطلقت من الشرق واكتسحت الغرب ، ولكنها لم تحمل الى شواطئنا غير الزهور » •

تم بحمد الله

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٨٧٣٦

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر ٣ ميدان المزينين
بجوار جامع الوداد